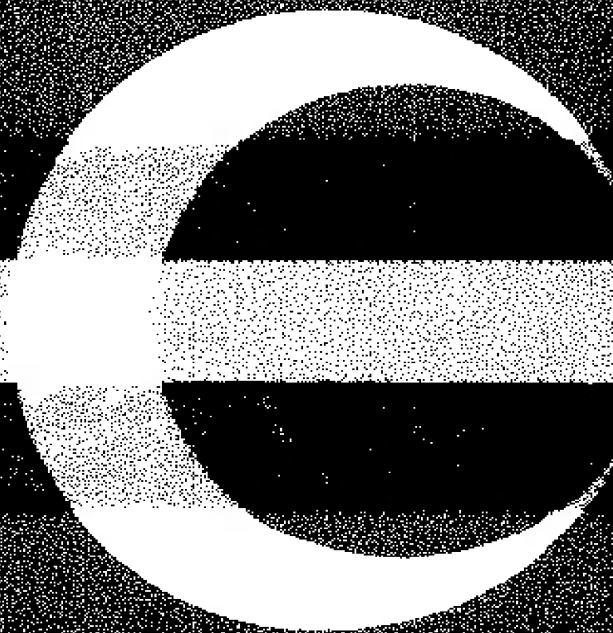
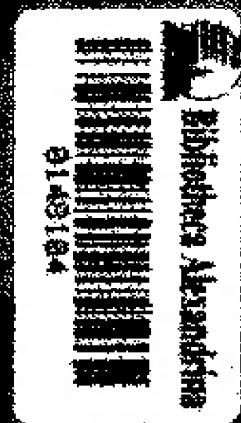


دور الأزهرف السودان



محمد سليمان



تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي السُّلُوكِ

محمد سليمان



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٥

الاخراج الفنى : كادل اشعيا
تصميم الغلاف : أسامة سعيد

تقديم

يرجع الفضل في كتابة هذه الدراسة التسجيلية الى الصديق
الفاضل الدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف الاسبق في مصر وكنت
آنذاك سفيرا لبلادي لديها وكان الحديث قد دار بيننا حول الأزهر الشريف
ودوره البناء في نشر العلم والثقافة الاسلامية وتمنى الصديق العلامة أن
يرى في كل قطر عربي دراسة عن دور الأزهر وأثره فيه .

وللحقيقة فان للأزهر ومنتخبيه على السودان وغيره من البلاد ديننا
في الاعتناق ونحن في السودان نعترف بذلك الفضل ونحفظ له ولمصر
بكثير من الامتنان تلك اليه البيضاء والمآثرة الحميدة . فمنه تخرج ذلك
النفر الكريم من السودانيين الذين عملوا جنبا الى جنب مع انغوائهم العلماء
المصريين في نشر التعليم الديني النظامي وشريعة الاسلام السمحاء ونسان
العرب والحضارة العربية الاسلامية ووفاء وعرفانا لهؤلاء وأولئك العلماء
الكرام نقدم ونهدي هذه الدراسة التسجيلية الموجزة .

انه من حق أبنائنا وأحفادنا ومن حق الأمة العربية والاسلامية
التعرف الى هذا السجل لادراك ما قدمه أولئك النفر من العلماء وما أسدوه
من جميل للسودان وللأمة العربية جمعاء .

جزاهم الله عن أهل السودان قاطبة كل خير ، وطيب ثرى من رحلوا
منهم الى الدار الباقية .

الخرطوم في فبراير ١٩٨٤ م

الؤلف

● العرب ووادي النيل

من قديم وقيل ظهور الاسلام كان العرب على صلة بوادي النيل وكان البحر الاحمر قناة تلك الصلة في جنوبه ميناء سواكن وفي شماله برزخ السويس ، وقد أنشأ العرب محطات تجارية هناك ومنهم من أقام وتزاوج مع السكان المحليين وبلغت هجرات العرب مداها في عهد مملكتي معين وسبأ قبل الميلاد بنحو سبعة قرون وكذلك نشطت حركة التجارة بين العرب وأفريقيا في زمن البطالمة والرومان وتوالت هجراتهم نحو أفريقيا من جنوب شرق الجزيرة خاصة بني حبر في القرنين السابقين للميلاد . وقامت دولتا الحبشة واكسوم نتاجا لتلك الهجرات وذلك التمازج واستمر العرب المهاجرون يتجهون نحو قلب القارة وتابع بعضهم نهر عطبرة أحد روافد النيل الى أرض النوبة .

ولكن ظل طريق برزخ السويس هو الطريق الرئيسي الذي تدفقت عبره القبائل العربية نحو وادي النيل غير ان دخول العرب في السودان قبل الاسلام لم تترتب عليه آثار عميقة اذ انحصر وجودهم أغلب الظن في الجزء الشرقي ولم يضيفوا شيئا جديدا للحياة في تلك المنطقة لا من الناحية الثقافية ولا من حيث تغيير الخصائص الانثروبولوجية والاثنية على السكان المحليين .

ولكن بعد ظهور الاسلام وخاصة بعد فتح مصر تدفقت القبائل العربية نحو أفريقيا وأحدثت تغييرات هامة في وادي النيل وشمال أفريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تاريخ تلك البقاع السياسي والفكري والاجتماعي منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربي .

كان فتح مصر يمثل إحدى طلائع الهجرات الكبرى التي انحدرت

من الجزيرة العربية الى أفريقيا عبر برزخ السويس وأخذت تهبط أرض مصر الطيبة تحمل معها رسالتها الجديدة ولسانها العربي وتوالت وفادة القبائل العربية وتواترت هجراتهم لمصر بغرض تعزيز الجند أو الاستيلاء وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد منع أولئك المهاجرين من الاشتغال بالزراعة وحرّم عليهم تملك الأراضي وألا تعنى بغير السياسة والحكم والحرب .

اتخذ العرب من مصر قاعدة لمزيد من الفتوحات والتوسع جنوبا وغربا بل وشمالا عبر البحر الأبيض المتوسط فكانت الجيوش تخرج منها اما لتأمين حدودها وطرق تجارتها مثل تلك الحملات التي خرجت لفتح النوبة جنوبا وبرقة أو لغزو غرب أفريقيا في عهدي عثمان بن عفان ومعاوية .

لم تكن هذه الموجة العربية الكبرى التي جاءت مع الاسلام كسابق الموجات العربية التي خرجت لتشد أرضا جديدة وتستبدل بقعة بأخرى أو مدفوعة برداءة الاحوال أو كثافة السكان أو هربا من خطر معين ولكنها كانت موجات تحمل مفاهيم وقيما وانماطا للحياة جديدة والقرآن الكريم ينادى فيهم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » .

وانما لم تكن موجات جزئية متقطعة كحال الهجرات العربية الاولى التي كانت تقتصر على جزء معين من وادي النيل أو ما بين النهرين أو على أطراف العراق والشام ولذلك كان أثرها عظيما على كل ما يسمى الآن بالوطن العربي حيث أضحي وحدة كاملة ... لقد قضت الموجات العربية العارمة على الحضارات السابقة الهلينية والرومانية التي كانت تسود في تلك المنطقة وصهرتها في بوتقة واحدة مما أدى الى انحسار ثم اندثار اللغات اليونانية واللاتينية والآرامية والسريانية تباعا والتي كان يتكلمها السكان هناك وأصبحت اللغة العربية لغة البلاد ليومنا هذا .

لقد دانت أجزاء كثيرة من أطراف البسيطة للعرب منذ عهد معاوية فخضعت لهم البلاد الواقعة من سواحل الاطلس الى بلاد الصين شرقا ومن جبال القوقاز شمالا الى خط الاستواء جنوبا ودخلت الاسلام شعوب كثيرة مثل السريان والكلدان والفرس واليونان والتتار والترك والبربر وغيرهم ، ويلاحظ ان العرب كونوا آنذاك طبقة ارسنقراطية ارادت ان تخضع تلك الشعوب المحكومة من أمسل الذمة بثوفير أسباب العيش والراحة ليا ورأى أولئك في الحكام العرب ملوكا لا خلفاء يسرون بهم على

نهج الاسلام بل اعادوا لهم نظام الحكم (١) الكسروي والقيصري وقلب بعض خلفاء بني أمية الحكم الى ملك عضوض كما يقول الجاحظ .

واستولى العباسيون على الحكم اثر ثورة عامة استجاب لها السكان وخاصة الموالي والمحرومين وكانت بالفعل ثورة ولم تكن مجرد تقويض حكم وزوال سيطرة أسرة واستبدالها بأخرى بل كانت نقطة تحول في تاريخ الاسلام غير أن الدولة العباسية نفسها لم تغير من أحوال المسلمين والرعايا المحرومين شئسيثا يذكر فكانت بمثابة تغيير خليفة بخليفة ولهذا قامت الثورات هنا وهناك في الامبراطورية الاسلامية في مصر وفي المغرب العربي وكانت ثورة الزنج والقرامطة بل بدأت الثورة منذ قيام الدولة العباسية والتي كان على رأس ضحاياها أبو مسلم الخراساني القائد الذي قاد العباسيين الى النصر .

لقد أسهم المسلمون (٢) من غير العرب مساهمة فاقت مساهمة العرب في بناء الامبراطورية الاسلامية واثراء الحضارة الاسلامية فقد نشر الأتراك أولوية الاسلام في آسيا والهند والصين وفي أوروبا أيضا والبربر في شمال أفريقيا والاندلس وكذلك فعل الفرس وغيرهم وكان الخلفاء العباسيون يستعينون بهم وخاصة الموالي منهم في الدفاع عنهم والحفاظ على ملكهم غير أنه على أيديهم تقطعت أوصال الدولة الاسلامية حيث استقل الولاة بمقاطعاتهم وأقاموا دويلات لهم .

الدولة الفاطمية :

على أن أقوى تلك الدويلات الاسلامية التي انسلخت من جسم الدولة العباسية وأخطرها أثرا هي الدولة الفاطمية (نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء) في عام ٢٩٧ هـ - ٥٦٧ هـ الموافق ٩٦٩ م - ١١٧١ م) في المغرب على يد داعيتها ومؤسسها عبيد الله المهدي - جد المعز لدين الله .

كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب انتصارا للدعوة السرية القرمطية التي تأثر دعااتها منذ قيام الدولة العباسية بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية فكانوا أول الدعاة للجمهورية الاسلامية والاشتراكية الاسلامية - لقد كانت دعوة فكرية وفلسفية اتخذت أسلوب الخلايا السرية وتجنيد من سموهم بالمحرومين والمظلومين ووجدوا في سلوك العديد من

(١) الاسلام والحضارة - محمد كرد علي صفحة ١٩٦ .

(٢) التمدن الاسلامي - الجزء الرابع - صفحة ٢٠٤ هامش - جرجي زيدان .

الخلفاء العباسيين مادة للتنديد بهم وإثارة الطبقات المحرومة من المسلمين ضدهم وكانت أعمال قادة الدعوة القرمطية ضد خلفاء بني العباس لا تخلو من العمل الإرهابي والاعتقالات الأمر الذي دفع الدعوة الثورية على الخروج منهم والتبرؤ من أعمالهم مع التمسك بتهجهم الفلسفي في الحكم وإقامة العدالة الاجتماعية في إطار إسلامي ويقال إن الدعوى الفاطمية انسلخت عن الدعوة القرمطية وكذلك نجد أن معظم الدعوات الفكرية الإسلامية ذات الطبيعة الفلسفية والصوفية قد نشأت وتفرعت من الدعوة القرمطية فظهرت الدعوة الشيعية بمنهجها وأسلوبها وكذلك خرجت منهم الدعوة الصوفية الخ ٠٠ ودليلنا على ذلك وجود المراتب القيادية التي تكاد تكون واحدة بينهم كالإمام والسيد والشيخ والمقدم وحجة الإسلام والباب العالي الخ ٠٠

لقد لقي دعاة تلك الدعوة السرية التي كانت تعمل في الخفاء قهراً وتكتيلاً وصلباً زهاء القرنين من الزمان على يد الحكام الأمويين والعباسيين وخاصة في عهد المنصور والرشيد والمتوكل وأحمد بن طولون في مصر (٢٥٤ هـ) ومع ذلك واصل أولئك الدعاء دعوتهم وتوجهوا شرقاً وغرباً إلى أطراف الدولة الإسلامية في صبر وأناة حتى كملت بالنجاح .

وفي عهد السلطان المعز لدين الله الخليفة الرابع دخل جوهر الصقلي عام ٢٥٨ هـ / ٩٦٩ م مصر منتزعا الحكم من الإخشيديين وكان يقود جيشاً لجبا وصفه ابن هاني الأندلسي الشاعر الشيعي الذي يضعونه في مرتبة المتنبى في الشرق بقوله عند خروجه من القيروان : -

فقد ضرعت حتى الرواسي لما رأت
فكيف قلوب الانس والانس اجزع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
تغيب المطايا فيه عشرا وتوضع
تسير الجبال الجامدات لسيره
وتسجد من أدنى الخفيف وتركم
إذا حل في أرض بناها مذائنا
وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

واختط جوهر مدينة القاهرة لتصبح عاصمة ملكهم وخلافتهم وانتقل إليها المعز لدين الله من المغرب بعد أربع سنوات من دخول قائده جوهر

وبعد أن اكتمل بناؤها وتوطدت دعائم حكمهم سار المعز في مركب ضخيم ليس كوال أو حاكم فقط وإنما كإمام ديني أيضا كعهد الشيعة ونظرتهم إلى الإمام .

وكان القائد جوهر قد وضع أساس مسجد كبير في القاهرة في اليوم الرابع عشر من رمضان عام ٢٥٩ هـ الموافق لعام ٩٧١ م واستغرق بناؤه زهاء العامين وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في السابع من شهر رمضان ٣٦٠ هـ الموافق الثاني والعشرين من يونيو عام ٩٧١ م وهو ما عرف بالجامع الأزهر الشريف . إن اهتمام الولاة المسلمين ببناء مساجد إنما يعود لأنها ليست أماكن للعبادة وحسب وإنما للدرس والتحصيل ولأسباب سياسية واجتماعية أيضا إذ ليس ثمة فصل في الإسلام بين السياسة والدين ، لقد كان هناك المسجد الحرام أو البيت العتيق والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ولما خرج المسلمون في فتوحاتهم المعروفة كتب الخليفة (١) عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في البصرة وإلى سعد ابن أبي وقاص في الكوفة وعمرو بن العاص في مصر بأن يبنوا مساجد يجتمع فيها المسلمون كما كتب إلى أمراء اجناد الشام أن يتخذوا في كل مدينة مسجدا .

كانت مصر تمثل مجتمعا راقيا متمدينا صقلته التجارب وعركته الأحداث الدينية والفكر وتمازجت فيه الحضارات وقد تبوأ مصر (٢) مركزا ممتازا في الدولة الإسلامية وكان الخلفاء المسلمون يولونها اهتمامهم الخاص فقامت حركات دينية واسعة كان مركزها جامع عمرو بن العاص وأصبحت الفسطاط لدى حقبة طويلة من الزمن قلبا للحركة الإسلامية في مصر حيث كانت تعقد فيها حلقات الدراسة والمناقشة وما يشبه الصالونات الأدبية اليوم وكان يسهم فيها العلماء المصريون والوافدون التي يقصدونها من البلاد العربية الأخرى .

لم يسرع الفاطميون بدفع الأزهر إلى غايته (٣) التي من أجلها أنشئ وهي الدعوة إلى الفقه الشيعي ومنافسة حلقات الدراسة الكبرى التي كانت تعقد في جامع عمرو بن العاص وابن طولون بل اكتفوا بجعله مسجدا رسميا يقوم في عاصمة ملكهم الجديدة وتلقى من فوق منبره خطبة الجمعة

(١) الأزهر - تاريخه وتطوره - الأوقاف صفحة ١١٦ .

(٢) مصر في فجر الإسلام - سيده كاشف صفحة ٣٣٧ .

(٣) الأزهر - تاريخه وتطوره - الأوقاف صفحة ٢٠٨ .

التي كانت بمثابة برنامج الدولة الرسمي وقصروا دعايتهم والدعوة
لذهبيهم وغاياتهم السياسية في مجالس خاصة .

وبعد أن توطدت دعائم حكمهم واستتب لهم الأمر في مصر استأثر
الأزهر برعاية الدولة حيث اهتم به الخلفاء الفاطميون اهتماما بالغاً وبعد
أقل من عشرين عاماً وفي عهد الخليفة العزيز بالله فتحت أبواب الأزهر
لدراسة العلوم الدينية والعقلية التي تقوم على أساس الفقه الشيعي
واستجلبوا له خيرة فقهاء وعلماء الدعوة الشيعية وقضاتها وأغدقوا عليهم
المال والعطايا ونقلوا إلى الجامع الأزهر كثيراً (١) من الكتب من مختلف
الخزائن وجمعوا طلاب العلم من البلاد الإسلامية الأخرى أسوة بالمصريين
للاستحاق به وكانوا بين الوقت والآخر يجرون توسعاً في مبانيه للدراسة
وأروقة للطلاب ودورا لجماعة الاساتذة والفقهاء وخصصوا أموالاً ثابتة
للائتفاق على الجامع الأزهر كما أسهم رجال الدولة والأمراء وأهل البير
في تخصيص جزء من أموالهم لتنفق على الأزهر وعلى الطلاب ، ومنذ ذلك
الوقت ونتيجة لذلك الاهتمام ارتبط اسم الأزهر برسالة العلم وأصبح
منارة علمية كبرى وجامعة عظمى وظل يحافظ على رسالته هذه على مر
السنين وإلى يومنا هذا - ويكفي الدولة الفاطمية فخراً أنها شيدت الأزهر
وأنشأت دار الحكمة .

لقد أصبحت القاهرة بفضل الدولة الفاطمية قصبة للخلافة الإسلامية
ومركزاً رئيسياً لها ومهما قيل عن ذلك العهد فقد كان عهداً ازدهرت فيه
العمارة والفنون وحفل بمجتمع علمي نبغ فيه أعلام وعلماء في الفقه
والفلسفة واللغة والرياضيات والهندسة وغيرها ، حيث لقوا الاحترام ،
والمعاملة الكريمة من قبل الحكام . لقد استطاع ذلك العهد تحقيق كل
ذلك بفضل ما اتبعوه من سياسة داخلية اتسمت بالعدل والحكمة فقد
فرضوا البيع بالتسعيرة وراقبوا استعمال الموازين في الأسواق وأدخلوا
الحد الأدنى من الأجور للطبقات الفقيرة في الأسواق وفي البناء . وحددوا
ملكية الأراضي وغيرها من التشريعات التي كانت في كثير من الأحيان
لمصلحة المستضعفين من الناس .

وعندما دالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ هـ
- ٦٤٨ هـ الموافق ١١٧١ م - ١٢٥٠ م) عادت مصر للاتجاه السني وأخذ
صلاح الدين على عاتقه إزالة كل مظهر من مظاهر التشيع ولم ير في

(١) القرطبي - خطب ٢ ص ٢٧٢/٢٧٣ .

الجامع الأزهر إلا منبرا للدعاية الفاطمية والدعوة الشيعية فاهملت الدراسة فيه وعطل نشاطه وتواضع شأنه ولم يكن كسابق عهده وبالرغم من ذلك ظلت أبوابه مفتوحة تدرس الفقه السننى على المذاهب الأربعة وفى آخر حكم الايوبيين كان الأزهر مسرحا لنشاط بعض اعلام الفكر والأدب .

لكن الأزهر بعث من جديد فى عهد المماليك (٦٤٨ هـ - ٩٢٢ هـ الموافق ١٢٥٠ م - ١٥١٧ م) والذي دام ما يقارب الثمانمائة عام وعادت اليه منزلته العالمية وأصبح جامعة اسلامية عظمى وفى ذلك العهد انقضى المغول على بغداد فى الشرق وأحدثوا بها وبثرائها وكتبها ما هو معروف فى التاريخ وفى المغرب العربى كانت دويلات العرب تتهاوى قلاعها وتسقط الاندلس وتركزت آمال المسلمين فى مصر وأصبحت قبلة للعلماء والفقهاء والنازحين اليها وكعادتها أفسحت لهم صدرها وآوتهم فى حنان ورفق وأخذ أولئك العلماء الوافدون يتعاونون مع رصفائهم المصريين فى حمل رسالة العلم فى الأزهر المعمور وفى معاهد مصر الأخرى ، وقد وصف العلامة ابن خلدون (٧٣٢ هـ - ٨٠٨ هـ - الموافق ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) مصر آنذاك وهو أحد العلماء العظام الذين وفدوا اليها وتولوا التدريس فى الأزهر بقوله : « لا أوفر (١) اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم واىوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع .. » .

ولكن بعد تلك الحقبة الغنية من النشاط الفكرى والروحى الذى حققه الأزهر ران عليه الجمود وأصابه العقم بعد أن جثم الانراك العثمانيون على صدر مصر (٩٢٢ هـ - ١٢٥٠ هـ الموافق ١٥١٧ م - ١٨٠٥ م) فقد عمدوا الى اضعاف منزلة مصر ليجسسلوا من مدينتهم اسطنبول قبلة للعالم الاسلامى وليسهل لهم حكم المسلمين فقبض السلطان العثمانى سليم على أكابر مصر وقضاتها ورجال المهن والفنون وبعث بهم الى اسطنبول وخرب مساجد مصر وانتزع نفائسها وكنوزها وما كانت تزخر به من كتب ومخطوطات وأرسلها لبلاده - لقد كان احتلال العثمانيين (٢) لمصر والبلاد الاسلامية نكبة ومحنة بل وتقويضا للمدنية الاسلامية .

(١) ابن خلدون - المقدمة - صفحة ٤٨٦ .

(٢) م . عبد الله عنان - مصر الاسلامية ٢٠٩ .

نجح الأتراك العثمانيون في مهمتهم ولم تعد مصر كما كانت عليه عظمة الجاه سامقة المكائفة حيث فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية وأغلقت مدارس الفكر والعلم الأخرى ولكن بقي بصيص (١) من النور يشع من الأزهر الشريف استطاع به أن يحفظ اللغة العربية والعلوم الاسلامية وبذلك حمى هذا التراث العظيم في وجه المتربصين به .

ولكن الأيام دول .

فقد دالت دولة الاتراك وولاتهم من المماليك وكذلك خرج نابليون وجيشه الغازي من مصر مذموما مدحورا بفضل تماسك المصريين ووقوفهم وراء زعماء الأزهر وتولى محمد علي باشا الحكم بعد أن اختاره شيوخ الأزهر واليا على مصر .

كان محمد علي باشا وأسرته من بعده ينظرون الى الأزهر كمؤسسة مصرية مرهوبة الجانب وقد عاد عنصرها هاما في السياسة والشئون العامة وكانوا يسعون لاضعاف نفوذه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ولكنهم كانوا يضطرون لاجراء بعض الاصلاحات فيه رضوخا لم يكن في وسعهم تجنبها .

وظلت مصر كما كانت دائما ابدا كعبة العلماء والقصاص يهرعون اليها ليستظلوا بظلها الوارف ولينهلوا من نبعها الفياض وكان جمال الدين الافغانى قطب الرchy منذ أن حطت رحاله مصر عام ١٨٧١ والتفت حوله مجموعة من طلابه النابهين وقامت نهضة فكرية ميمونة ثم نفى جمال الدين وغادر مصر عام ١٨٧٩ ولكن الشعلة التي أوقدها ظلت تنقد حتى قامت الثورة العرابية وكان عرابي والبارودي ومحمد عبده وعبد الله التديم وقادة الثورة ومن قامت على اكتافهم نهضة مصر من متخرجي الأزهر .

لقد شهد الأزهر تطورا واصلاحا كبيرا منذ أواخر القرن التاسع عشر وهنا يقفز الى الذهن الامام محمد عبده فقد اقترن اسمه بما جرى للأزهر من اصلاح ونهضة في أداء رسالته ، كما ارتبط الأزهر بأسماء نخبة كبرى من رجالات مصر أسهمت بدور كبير في تاريخ مصر السياسي والثقافي وفي ثورة مصر الكبرى عام ١٩١٩ ممن يعرفهم الصغير والكبير .

(١) م . عبد الله عنان - تاريخ الجامع الأزهر ١٤٦ / ١٤٧ .

وبعد الحرب العالمية الثانية تطورت الاحداث المسالمة ووثقت الشعوب تطالب بحق تقرير مصيرها وقامت ثورة يوليو في مصر عام ١٩٥٢ فشملت يدها الأزهر وأجرت فيه اصلاحات جسيمة من حيث تنظيم هيئاته (١) واقامة كليات للدراسات الاسلامية والعربية والطب والعلوم والتجارة والهندسة وأصبح الأزهر يعيش بالاسلام في واقع المجتمع ويبعث روح الدين في شتى مجالات العمل ويحيل مكانه في العالم كجامعة اسلامية مرموقة تأخذ بأسباب الدين والدنيا وحق للمفكر العربي الأستاذ (٢) عباس محمود العقاد ان يقر عينا في مرقده فيسبر المنادى باصلاح الأزهر بقوله :

« خير ما يطلب للأزهر هو أن يزداد نصيبه من الجامعة العلمية وان يزداد نصيبه من المشاركة في الأعمال الدنيوية وان يحال بينه وبين العزلة والانقطاع »

ونحن مؤمنون بماضي الأزهر العظيم ولكننا أشد أيمانا بمستقبله لأن وظيفته في الماضي كانت واحدة لا منازع فيها ولكنها في المستقبل وظيفتان ينهض بهما فيكون له شأنان متعادلان في حكمة العلم وحكمه الاسلام .

والجامع الأزهر أحق مكانة بأن يتدارك عيب العصر الحاضر الذي يتمثل في العزل بين عالم العقل وعالم الروح فيتعلم فيه الرجل وهو مؤمن ويؤمن فيه وهو عالم » .

(١) الأزهر تاريخه وتطوره - الاوقاف صفحة ٤٦٧ .

(٢) سنينة قراغة - تاريخ الأزهر في الف عام من ٢٨٩ .

● السودان وبداية انتشار الاسلام

يعرف شمال السودان في العصور الوسطى بالنوبة وكان أول من أطلق لفظة النوبة هو المؤرخ الاغريقى اراتوتينيس فى القرن الثانى قبل الميلاد على المنطقة الواقعة على جانبى النيل بين أسوان ودنقلا وهو تعبير جغرافى حرف أخيرا ليصبح اسما للقبائل المستعربة هناك .

دخلت المسيحية الى شمال السودان منذ القرن السادس الميلادى وقامت فيه ثلاث ممالك مسيحية وهى مملكة النوباط فى المنطقة الممتدة من الشلال الأول الى الشلال الثالث وعاصمتها فرس (٥٤٣ م) وجنوبها مملكة المفرة وعاصمتها دنقلا حوالى (٥٦٩ م) وامتدت هذه الدولة جنوبا حتى كبوشية الحالية والتي سماها العرب بالأبواب ولكن دولتى النوباط والمفرة اندمجتا فى مملكة واحدة قوية للموقوف فى وجه الزحف العربى الاسلامى من مصر وبالفعل عاشت هذه الدولة الموحدة ما يقرب من سبعمئة عام . أما الدولة المسيحية الثالثة كانت تعرف بعلوة وعاصمتها سوبا (٥٨٠ م) على بعد اثنى عشر ميلا جنوب الخرطوم على الضفة الشرقية للنيل الأزرق .

وما ان استتب الأمر لعمر بن العاص بعد فتح مصر عام ٦٤١ م فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى سير حملة جنوبا لغزو النوبة المسيحية وفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية ولكنها قوبلت بمقاومة عنيفة ولم تستطع التوغل جنوبا لأداء مهمتها ويبدو أن عمرو بن العاص شغل بمشاكل الحكم فى مصر فترك النوبة وشأنهم

ولكن بعد أن تولى عبد الله بن سعد بن أبي السرح حكم مصر خلفا لعمر
ابن العاص سير جيشا إليها لفتح النوبة عام ٦٥١ م بعد عشر سنوات
من فتح مصر وتقاتل الطرفان قتالا شديدا وصفه الشاعر (١) بقوله :
لم تر عيني مثل يوم دنقله والخيل تغدو باندروع مثقله

واتفق الطرفان على هدنة بينهم عرفت بالبقط يفسرها المؤرخون
بأنها معاهدة حسن جوار (٢) أو عدم اعتداء بتعبير حديث تحقق لمصر
الإطمئنان على سلامة أراضيها من ناحية الجنوب والتبادل التجاري بين
البلدين فتحصل مصر على الرقيق وسواعدهم القوية وعلى الماشية كما
تحصل النوبة (السودان اليوم) على بعض الحبوب غير أن المعاهدة
اشتراطت على النوبة المسيحية حفظ مصالح المسلمين وحريةهم الدينية
فيها والعناية بجامع دنقلا ونظافته وإسراجه وكان هذا الجامع يجتمع
فيه المسلمون الذين دخلوا الاسلام هناك أما بعد محاولة عمرو بن العاص
غزو النوبة أو بفضل التجار والوافدين من مصر الاسلامية - لقد كانت
تلك الاتفاقية تحظى بموافقة البلدين - مصر الاسلامية والسودان المسيحي
- لحاجة كل منهما لذلك التعاون والتبادل التجاري ولذلك ظلت سارية
المفعول أكثر من ستمائة عام دون ما انحلال بنصوصها الا في حالات
قليلة .

كذلك وفي عهد الخليفة العباسي المأمون خضع البجة في شرق
السودان للحكم الاسلامي أي بعد حوالي ثلثمائة عام من غزو ابن أبي
السرحة للنوبة وأصبحت بذلك الأراضي الواقعة من جنوب أسسوان الى
جنوب دهلك - مصروع جزءا من الدولة الاسلامية .

وبالرغم من بقاء مصر دولة اسلامية فقد ظل السودان (النوبة)
كما كان دولة مسيحية مئات السنين وكان ينظر الى ملوكها على قسمين
المساواة مع ملوك مصر وبلاد الشرق الأدنى . وقد أرسل (٣) ملك النوبة
المسيحي زكريا ابنه جورج المعروف بغيرقي في الوثائق العربية الى
بغداد عام (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) في مهمة دبلوماسية لتسوية متأخرات
الجزية التي فرضتها معاهدة البقط وقد استقبله الخليفة العباسي

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر - نقلا عن المكتبة السودانية العربية مجموعة النصوص
والوثائق للدكتور مصطفى مسعد .

(٢) د. يوسف فضل - دراسات في تاريخ السودان ج ١ - ص ٢٧ .

(٣) د. مصطفى مسعد - الاسلام النوبة ص ١٧٦ .

المنعصم استقبالا كريما في بغداد واستمع له ولشكواه من ان بعضا من المسلمين في أسوان أخذوا يشترون أراض من رعاياه المسيحيين وهي نفس الشكوى التي كان قد تقدم بها ملك النوبة للخليفة (١) المأمون عند زيارته لمصر وبالرغم من الاستقبال الحافل الذي لقيه جورج في بغداد واجابة بعض مطالبه الا أن شكواه بخصوص شراء المسلمين لأراض النوبة (السودان) لم تقبل مع أن معاهدة البقظ لم تسمح للمسلمين بالاقامة في ارض السودان المسيحية .

ثم خضعت مصر لحكم الماليك في القرن التاسع الميلادي ولم يعد العرب كما كانوا حكاما بل رعايا ولم يكن لهم شأن في الدولة كسما كانوا (٢) وشب الصراع بينهم وبين الحكام المسلمين غير العرب في مصر وأصبح ينظر اليهم كمتمردين وخارجين على القانون فازداد تدفق القبائل العربية تباعا لذلك على السودان الشمالي واختلطوا بالسكان المحليين وانتشر لسانهم ودينهم .

وكان الحكام الماليك وبالدات الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون يرسلون حملات تأديبية على النوبة (السودان الشمالي) لامتناعهم عن دفع الجزية التي فرضتها معاهدة البقظ .

وأخيرا أمام تكرار الهجرات العربية للنوبة (شمال السودان) وحالة الفوضى التي كانت عليها المنطقة وصراعات الملوك حول السنتنة وغزوات سلاطين مصر سقطت الدولة المسيحية في دنقلا في بداية القرن الرابع عشر الميلادي وانفتح الباب على مصراعيه للقبائل العربية فتدفقت جنوبا وأخذوا يكونون بيئاتهم ومجتمعاتهم القبليسة وكما قال ابن خلدون (٣) :

«وانتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وعلاوها عبثا وفسادا وذهب ملوك النوبة الى مداقعتهم فعجزوا ثم صاروا الى مصالحتهم بالمصاهرة » .

هكذا سقطت دولة المغرة المسيحية في دنقلا وبقيت دولة (علوة

(١) السبوي - مروج الذهب - نقلا عن مصطفى مسعد المكتبة السودانية ص ٥٣ .

(٢) د. مصطفى مسعد - امتداد الاسلام والعروبة .

(٣) ابن خلدون - العبر وديوان المبدأ والخبر نقلا عن المكتبة السودانية العربية

مجوعة القصص ص ٢٨٠ - د. مصطفى مسعد .

المسيحية في سوبا تنتظر مصيرها المحتوم والقبائل العربية تتجمع وتتوحد بعد فترة زمنية تقرب من القرنين وتقيم تحالفا مع أسرة سودانية حاكمة وتسقط الدولة المسيحية على يد ذلك التحالف عام ١٥٠٤ م .

كان قيام الدولة المسيحية في السودان ايذانا ببداية تقدم سياسي وثقافي بعد ما أصاب السودان من ضعف وتدهور بعد سقوط دولة مروي في منتصف القرن الرابع للميلاد .

لقد امتدت فترة العهد المسيحي في السودان ما يقرب من الألف عام مما أثر تأثيرا مباشرا سياسيا وثقافيا وروحيا وساعسدا في تكوين الحضارة المميزة للسودان حيث كانت الطقوس الدينية تؤدي في الكنائس باللغة اليونانية قبل الفتح الاسلامي ثم باللغة القبطية وأخيرا باللغة النوبية نفسها فقد ترجم اليها الكتاب المقدس نفسه .

اضحى للسودان المسيحي اسم كبير في الشرق الأدنى وكان ملوكه يعاملون على قدم المساواة مع حكام مصر وبيزنطة والبلاد الأخرى في تلك المنطقة .

وكانت للسودان علاقة طيبة بمصر الاسلامية الا في فترات بسيطة وقد قويت العلاقة بينه وبين الدولة الفاطمية في مصر بصفة خاصة وقد أرسل القائد جوهر الصقلي عقب فتح مصر رسوله عبد الله بن أحمد بن سليم الاسواني برسالة ودية لملك النوبة قيرقي (جورج) كان مما جاء فيها دعوته له لاعتناقه الاسلام .

كما أكثر الفاطميون من استجلاب السودانيين وتجنيسهم في صفوف الجيش الفاطمي خاصة في عهد الخليفة المستنصر ، وقد كانت أمه سودانية ويروى أنهم بلغوا الخمسين ألفا وأصبحوا قوة كبرى في مصر مما اضطر صلاح الدين الأيوبي أن يحاربهم ويقضي عليهم ليقيم دولة الأيوبيين .

لقد كان السودان أول بلد زنجي غرست فيه بذور المسيحية وقامت فيه دولة مسيحية وشهد السودان قيام دولة عربية اسلامية عرفت بسلطنة سنار أو سلطنة الفونج نسبة الى الاسرة السودانية الحاكمة ثم تبعتها دولة دارفور ومملكة تغلي في كردفان وكلها انضوت مؤخرا بعد فتح محمد علي باشا للسودان لتكون السودان اليوم في الجزء الشمالي الشرقي لأفريقيا دولة عربية أفريقية ذات سيادة كما قامت دول اسلامية

فى أفريقيا الغربية وانتشر الاسلام من البحر الاحمر الى بحيرة تشاد ولم
يبقى فى أفريقيا دولة مسيحية غير الحبشة .

ومن الطريف أن معظم القبائل العربية التى دخلت السودان مازالت
تحتفظ بأسمائها العربية الى اليوم مثل كنانة وسليم وفزاره وجهينه ورفاعة
ونائل وبنى هليله وهلال وجزام والضباينه (محرفة من ذبيان) (١)
وغيرها .

(١) عبد الله عبد الرحمن - العربية فى السودان طبعة بيروت .

● نواة التعليم الدينى المنتظم

كفلت اتفاقية البقظ التى أشرنا إليها آنفا والتى عقدها عبد الله ابن سعد بن أبى السرح حاكم مصر آنذاك مع الدولة النوبية المسيحية . كفلت للمسلمين حرية ممارسة شعائرهم الدينية فى تلك الدولة المسيحية فقد جاء فيها بالنص .

« وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم (يقصد دنقلا عاصمة دولة النوبة المسيحية) ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه الى أن ينصرف عنه وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته » .

كان ذلك أول اشارة تاريخية الى مسجد دنقلا العتيق الذى كان قائما قبل غزو ابن أبى السرح لأرض النوبة (السودان الشمالى) ربما بنسائه المسلمون الذين تخلقوا هناك بعد حملة عمرو بن العاص التى شنها بعد عامين من توليه حكم مصر (٢٠ هـ = ٦٤١ م) أو التجار أو الجنود أو الوافدون إليها من مصر .

لم تكن القبائل العربية الوافدة تهتم بنشر الاسلام ربما لانشغالها بمشاكل الرعى فى وطنها الجديد ولجلها بأصوله خاصة بعد مصاهرتها للسكان المحليين الا فى حدود ضيقة حيث عكف بعض الرواد المسلمين ينشرون العقيدة الاسلامية فى بساطتها وسماحتها واتسع نشاط المبشرين الاسلاميين بعد سقوط الدولة المسيحية فى الشمال كما ذكرنا آنفا وانفتح الطريق لكثير من العلماء المسلمين من مصر والحجاز

واليمن والمغرب لل إقامة في السودان حيث أخذوا يدرسون للناس قواعد الاسلام وكان مسجد دنقلا بمثابة جامع عمرو بن العاص في مصر آنذاك يؤمه ويصلى ويجاور فيه مسلمو تلك المنطقة .

لقد بقيت دولة علوه المسيحية في سوبا وحدها تقاوم النفوذ العربي الاسلامي الذي كان يحيط بها حتى سقطت في عام ١٥٠٤ وقامت دولة سنار كما ذكرنا سابقا .

لقد صاغت دولة سنار - أو ما تسمى أيضا بسلطنة الفونج - اساس السودان العربي الافريقي الذي تزاوجت فيه الحضارة النوبية والفرعونية والزنجية لتصب في رافد الحضارة الاسلامية التي ازدهرت في السودان بفضل العلماء الوافدين اليه من البلاد العربية لا سيما مصر وبفضل العلماء السودانيين الذين تخرجوا في الأزهر وأتباعهم وتلاميذهم ويمكننا اذا ان نقول ان انتشار الاسلام في السودان تم على مرحلتين احدهما تلقائية وبواسطة طلائع المهاجرين والأخرى منظمة وعلى اساس علمية عن طريق الأزهر أساسا .

أخذت الحياة الدينية الاسلامية تأخذ طابعها العلمي المنتظم في عهد الشيخ عجيب بن الشيخ عبد الله جماع احد مؤسسي دولة سنار لقد ارسى ذلك العامل الذي جلس على كرسي الحكم مدة طويلة (٩٧٠ - ١٠١٩ هـ / ١٥٦٣ - ١٦١٠ م) اساس الحياة الدينية في السودان حيث بنى المساجد ودور العلم في انحاء البلاد وفي عهده الطويل اقبل كثير من العلماء المسلمين الى البلاد حيث لقوا من التكريم والقبول ما هم به حريون وهو الذي بنى رواقا في المدينة المنورة (١) لايواء السودانيين وآخر في مصر لطلاب العلم السودانيين في الأزهر الشريف .

اقبل السودانيون على الدراسة والعلم في شغف ونهم وكانسوا بهاجرون من شيخ الى شيخ في طلب المزيد منه ثم يولون وجههم شطر الأزهر الشريف بالذات حيث صدق عليهم القول المأثور بأن للمسلمين قبلتين دينية وهي الكعبة الشريفة وعلمية وهي الأزهر الشريف ، كانوا يسافرون الى الأزهر وهم يحفظون القرآن وعلى دراية بعلوم اللغة والفقه .

(١) محمد محيي الدين - مشيخة العبدلاب - ص ٢٦٢ .

محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١٧ نسخة ابراهيم صديق .

لقد ترك لنا أحد العلماء السودانيين وهو الشيخ عمار بن عبد الحفيظ وصفا لرحلته الى مصر والحجاز كعبتي العلم والدين أنقله بنصه :

« كان سفرنا من سنار لطلب العلم بالأزهر وللحج في يوم الجمعة بعد العصر خامس رمضان سنة سبعة وسبعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ولم ندخل مصر الا في أول شهر صفر في سنة ثمان وسبعين وجلسنا بالأزهر الى شوال ثم سافرنا الى الحج وحججنا حجة الاسلام في تلك السنة أي سنة ثمان وسبعين وفي شهر صفر سنة تسع وسبعين جلسنا بالأزهر بعد عودتنا من الحج ومكثنا بقية صفر والربيعين والجماديين ورجب وشعبان ورمضان ثم سافرنا للحج أي حج التطوع في شهر شوال مع الحجيج المصري وحججنا في سنة تسع وسبعين ثم جلسنا بمكة مجاورين بيت الله الحرام ثم سافرنا الى حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في شهر المحرم سنة ثمانين وجلسنا في المدينة ماشاء الله ان نجلس ثم رجعنا الى مكة شرفها الله مجاورين بيت الله الحرام الى ان حضرنا مولد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بمكة ودخلنا فيسه وصرتنا ان شاء الله من الأمنين ثم سافرنا من مكة يوم سابع عشر من ربيع الاول الى جدة ومنها الى مصر بالسلامة في البحر في شهر رمضان من سنة ثمانين والـف ثم ادركتنا سنة واحد وثمانين بمصر وسافرنا منها الى البلد وكان حجنا حجة الاسلام سنة ثمان وسبعين وحجة التطوع سنة تسع وسبعين وكان يوم عرفة يوم الجمعة والحمد لله رب العالمين . ويقول عنه المؤرخ السوداني محمد ضيف الله المتوفى عام ١٢٢٤هـ . ١٨٠٩ م ضمن ما قال :

« . . . ولد بنسار وسافر الى مصر والحجاز لطلب العلم والحج قرأ فيها العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو واللغة والأصول والمنطق والتصوف وسائر الفنون يقرأ الكتاب ختمة ختمة وتحصل على أكثر الشروح فاحضر معه رجلين أو ثلاثة كتب ٠٠٠ وعكف على تدريس مواظنيه » .

هكذا كان السودانيون يسافرون الى الأزهر غير عابئين بمشاق السفر ووعثائه وطوله وعنائه فقد كانت الرحلة من سنسار الى مصر تستغرق آنذاك خمسة شهور يتعرض المسافرون فيها للمخاطر والأهوال

التي كانت تتمثل في غارات النهب والسلب ومن جراء الحروب والقبليّة
العنيفة التي شهدتها البلاد في آخر عهد دولة ستر .

وكما ترك لنا الشيخ عمار بن عبد الحفيظ وصفا لرحلته الى
الازهر عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م كذلك سجل الشيخ محمد المبارك
عبد الله شيخ علماء السودان رحلته الى الازهر عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م
أي بعد مائتين وخمسة وستين عاما من رحلة الشيخ عمار - ويلاحظ
ان السفر للازهر كان أملا عظيما وهدفا كبيرا لدى طالبى العلم على
بعد الزمان مع اختلاف فى الظروف والمعوقات .

يقول الشيخ محمد المبارك عبد الله :

« ويتتابع الزمن أياما وأسابيع وشهورا ، واسمع عن الازهر
الشريف ، واعلم علو شأنه فى جامعات العالم واصالته فى التعليم الدينى
وأن ما سواه رافد من روافده وتبع له فى ذلك ، وأنه منتهى مقاصد
التعلم يقدون اليه من كل فج حقيق ، وغاية غايات طلاب العالم
الاسلامى يهرعون اليه من كل حذب وصوب ، وأنه كما قال شسوقى
فى عليائه :

واخشع مليا وافض حق أئمة	طلعوا به زهرا وما جوا أبجرا
كانوا أجل من الملوك جلالة	وأعز سلطنا وأفخر مظهرنا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الأكسان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعة ذاخر	وبريكه الخلق العظيم غصنفرا

حتى ظنننا الشافعى ومالكا وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

فأرغب مع الزمن فى السفر الى مصر للاتحاق بالازهر طلبا للعلم
على أعلى مستوى ، وأذكر مفتش مصلحة المعارف المصرى ، الذى كان
يمر فى زيه الأزهرى الفاخر بالخلاوى يتعرف نظمها وعدد طلابها ونتائجها
ليقوم بتقويمها ويكتب عنها تقريرا يقدمه للمستولين فى مصلحة
المعارف تمهيدا لاعانة فقهاؤها كما أخبرنا بذلك الفكى جلدان مسرورا
عندما مر بخلوتنا وقدمنى اليه الفكى فتناول لوحى ونظر خطى فاعجبه
وأخذ يسألنى وأجيب فيستحسن أجوبتى كيف كان وقورا حسنا
الهندام رفيع المقام جليل الشأن يقوم الناس على اختلاف مكاناتهم
اجلالا له ليتلقونه بالتكريم والتبجيل فى كاكولته الازهرية الخضراء
وعمامته ناصعة البياض على طربوشه الاحمر القانى .

ويجيء الشيخ حمد ادريس من اهالى جزيرة توتى وكان قد سافر الى الازهر وحصل على اهليلة الغرباء ومعه مؤلفه فى العروض الذى سماه (التذكرة التوتية) فيحدثنا عن التعليم فى الازهر ووزارة علم علمائه وعبقرياتهم وقدراتهم الفسائفة على كشف الشبهات وحل المشكلات وتوضيح المضلات ، وعن يسر الالتحاق بالازهر وعن رواق السنارية (داخلية السودانين) ونزلهم هناك ويجيء بعض السودانين من الازهر غير الشيخ حمد الشيخ ادريس يحملون مختلف الشهادات الازهرية على تفاوتهم فى التحصيل واختلاف مراتبهم فى الملكات العلمية فتفتح لبعض منهم ابواب وظائف الحكومة فى القضاء والتدريس وتكون لهم المكانة الاجتماعية المرموقة فيزيد كل ذلك من رغبتى ، غسبر أن رغبتى كلما قويت تصطدم بصخرة صلبة أقوى منها ، هى توقع عدم موافقة والدى على سفرى وخوفى من أن يكون والدى كما يحب العلم يحب اقامتى بجانبه وأن تكون اقامتى بجانبه أحب اليه من العلم فأسف لذلك كثيرا ، واعانى منه كثيرا .

ويختلف الليل والنهار وننتقل من السنة الدراسية الثانية الى السنة الدراسية الثالثة وتشجعنى الاولى فى نتيجة الامتحان ، وتدخل دوافع أخرى تحملنى على السفر غير مجرد الرغبة فيه ، فهذا زميلى وأحد منافسى فى السنة الدراسية يسافر الى الازهر ويلتحق به شاردا من غير اذن والده ، وهامهم اولاء جماعة من طلاب كلية غردون يابقون لطلب العلم بمصر ويساعدهم على هذا الإباق أعضاء جمعية اللواء الأبيض وكم ند غيرهم من الطلاب كما يند البعير والتحق بالازهر متحملا مشقة السفر مع المواشى فى عربات الحيوانات بقطارات البضاعة فحسن حاله وصار له شأن فالغاية شريفة والسفر فى طاعة ، والله سبحانه وتعالى يقول : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، وربما يكون صاحبى قد افتنى نفسه من هنا بجواز ذلك .

ولكن اليس فى المعهد من العلم ما يكفى طلاب الفقه فى الدين ؟ والمنهج واحد والكتب المقررة هنا هى الكتب المقررة هناك ، وقد اقتبس الشيخ ابو القاسم هذا النظام من نظام الازهر بواسطة الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر الذى كان قاضيا للقضاة بالسودان كما سمعنا ذلك من مشايخنا اكثر من مرة فى معرض الحديث عن نشأة المعهد والثناء

عليه ؛ على كل حال طلب الزيادة على العلم الواجب ان لم يكن واجبا عينيا فهو واجب كفائي أو مندوب اليه ، وقد كان الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم يرحلون طلبا لتفسير آية من كتاب الله أو رواية حديث من أحاديث رسوله إلى أقاصي البلاد فضلا عن انه لا يمكن أن يكون المعهد - كالأزهر - وهذه الكتب المقررة كلها أو أكثرها من تأليف علماء الأزهر ، والمسألة ليست مسألة مماثلة في المقررات والكتب ، وإنما هي مسألة رجال يشرحون هذه الكتب ويبينون ما غمض منها ، ومشايخنا وإن كانوا علماء كملة إلا انه ما من كمال إلا وعند الله ما هو أكمل منه ، وفوق كل ذي علم عليم وهن قصد البحر استقل السواقيا .

وهكذا تتداعى الأفكار المتقابلة وتتوارد الخواطر . والموازات والمعادلات في ذهني فأعاود الحديث مع والدي بشيء من الصراحة : اني أريد أن أسافر إلى مصر السنة الآتية بعد أداء الامتحان وانتهاء العام الدراسي الحالي أن شاء الله وأريد أن أسافر وأنت راض عنى لا كما فعل فلان وفلان ، وما دمت سأقضى اثنتي عشرة سنة في طلب العلم بالمعهد هنا لأحصل على العالمية فخير لي أن أقضى هذه السنة بالأزهر وأحصل على العالمية من هناك .

ولكن ليس رضا والدي وحده هو كل شيء في عدة السفر إلى مصر للتعليم ، وليس كل ما قام به نحوى من اعداد وزاد يكفى لسفرى مالم يأذن السكرتير الإدارى أو مكتب المخبرات في ذلك الوقت أو دون أن أحصل على تأشيرة الخروج كما يسمونها الآن . ومن لى بأن يأذن السكرتير الإدارى بسفرى إلى مصر للتعليم فى تلك الظروف التى نشطت فيها الحركة الوطنية ضد المستعمرين ، وتواطأت في مصر والسودان ، واتحدت أهدافها ، وتجاوب القائمون بها ، وأخذ أعضاء جمعية الأواء الأبيض يهربون طلاب كلية غردون الوطنيين إلى مصر لإكمال دراستهم في المدارس الثانوية ، وجامعة القاهرة ، واعدادهم للنضال ، كما تهرب المنوعات ، فالتجأ إلى الوساطة الكريمة في هذا أيضا .

وتنتهى الوساطة إلى اليزياشى عبد الخالق حسن مأمور مركز أم درمان حينذاك ، غير أن وساطة عبد الخالق بك تزيد الأمر تعقيدا فيما يبدو من غير قصد ، وتثير منافسة في موضوع سسفرى بين عبد الخالق بك ومكتب السكرتير الإدارى : يسر عبد الخالق الرجل المصرى الوطنى المسلم ، أن أسافر لأطلب العلم بالأزهر الشريف ، وأن يشجع مثل هذه الهجرة إلى مصر فى طلب العلم بالأزهر بين طلاب

المعهد ، كما تشجع الهجرة الى مصر طلبا للعلم في مستدارس وزارة المعارف المصرية بين طلاب كلية غردون ، ويخشي مكتب السكرتير الادارى ان اذن لى ان يفتح باب السفر الى مصر لطلب العلم امام طلاب المعهد فينهالوا عليه ، وهو ما لا تريده حكومة السودان ويعتبر في سياستها لتوهين العلاقات الثقافية بين مصر والسودان اخطر شيء ، ويسألنى كبير الموظفين فى مكتب السكرتير الادارى لماذا لا ألتحق بقسم القضاء الشرعى فى كلية غردون أو اطلب التعيين فى المحاكم الشرعية فى الوظيفة التى تناسب معلوماتى ان كنت لا أريد مواصلة الدراسة بالمعهد ؟ ولماذا أعرض نفسى بالسفر الى مصر فى هذه الظروف للحرمان من العودة الى بلدى ، والالتحاق بوظائف الحكومة محاولا صرفى عن السفر بالترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، غير أنى أصر على طلب الاذن بالسفر مهما كلفنى ، ومهما كان من نتائج القربة والبعيدة وأظفر بعد الليتا والنتى كما يقولون بجواز السفر المطبوع والمعد للسفر بين مصر والسودان فى تلك الأيام . وهو ورقة واحدة بها بيان حال المسافر وأوصافه وعنوانه هنا وهناك والضامن على صفحة باللغة انجليزية ، وعلى الاخرى باللغة الانجليزية مقابل خمسة قروش ، ولا اذكر الآن انى فرحت منذ ولدت ووعيت الى ذلك التاريخ بشيء فرحى بالحصول على هذه الورقة التى تسمح لى بالسفر الى غايتى » (١) .

لقد حصل الشيخ محمد المبارك عبد الله على الشهادة الابتدائية النظامية فى نفس العام الذى التحق فيه بالازهر وكان يحمل شهادة النقل من السنة الثالثة الى السنة الرابعة الابتدائية من معهد أم درمان العلمى الذى انشئ عام ١٩١٢ م على غرار الازهر كما سترى فيما بعد .

ولعله من المفارقات القربة ان المواطنين وعلى رأسهم سلاطين وحكام سنار كانوا يحتفلون بالطلاب السودانيين القاصدين الازهر ويودعونهم وداعا حارا على النقيض مما كان يجرى للطلاب بعد ثلثمائة سنة ابان الحكم البريطانى على السودان اذ كان أولئك الطلاب يتخفون فى زى رعاة البقر الذين يرافقون الأبقار والماشية التى يصدرها أصحابها الى مصر لبيعها هناك .

(١) محمد المبارك عبد الله مذكرات وذكريات من ٢٥ .

● الرواد السودانيون من متخرجي الأزهر

سلطنة سنار (١٥٠٤ - ١٨٢١ م) .

أول من وفد الى مصر من السودان للدراسة في الأزهر كما تسجله
وثائق التاريخ هو الشيخ محمود أحمد المركي الذي تعلم على الشيخين
شمس الدين اللقاني وناصر الدين اللقاني في ما بين ١٢٣٥/٩٤٠ هـ -
الموافق ١٥٢٩/١٥٣٤ م وهما من شيوخ المالكية المعروفين .

وعندما عاد الشيخ محمود انشأ خمس عشرة مدرسة على النمط
الابيض في منطقة الكوة (اليس) على بعد ١٣٠ ميلا جنوب الخرطوم
ولنا أن نعرف مبلغ الجهد والدور الكبير الذي قام به إذ لم تستمر
قبله في البلاد مدرسة علم ولا قرآن وعدد المواطنين الذين درسوا عليه
وانتشروا يحملون رسالة النور لمواطنيهم الآخرين فوق التقدير .

وهناك أولاد جابر الأربعة وهم يتحدرون من أسرة دينية معروفة
كان عميدها العالم غلام الله بن عابد الذي وفد السودان من اليمن في
آخر القرن الخامس عشر الميلادي . كان أكبرهم ابراهيم جابر وقد
درس في الأزهر على الشيخ محمد البنوقري وغيره من أعلام المالكية
في مصر الفقه المالكي وأصول اللغة والتحرر وعاد الى بلاده ويقال انه
أول من درس مختصر خليل بن اسحق المالكي ورسالة ابن أبي زيد
القيرواني في السودان . ويعرف الشيخ ابراهيم بالبولاد (١) ووراء

(١) ود ضيف الله - الطبقات - نسخة ابراهيم صديق - ص ٦ .

هذا اللقب قصة إذ يقال ان رجلا أقسم أن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فافتاه الشيخ ابراهيم بوضع المصحف على سريره مستندلا بقوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ولما سمع الشيخ البنوفرى تلك الفتوى قال لتلميذه ابراهيم « انت بولاد البر » ويقصد بالبر السودان كما كان بعضهم يسميه . ويروى أن الشيخ ابراهيم قد تعلم عليه أربعون رجلا أصبحوا أقطابا في الدين واعتبر ذلك العدد المناسب الذي يتولاه الشيخ بالتدريس والباقون من الطلاب يتولى تدريسهم حواريون للشيخ ويعرف الواحد منهم بالعريف كما هو معروف في مصر وأصبح ذلك تقليدا سار عليه العلماء إذ يتخرج على يد كل منهم أربعون قطبا في الدين وهم بدورهم ينتشرون في أنحاء البلاد ليعلموا الناس أيضا .

وكان من تلاميذ الشيخ ابراهيم أخوه عبد الرحمن (١) وقد ذهب أيضا لمصر للاستزادة من العلم في الأزهر على الشيخ البنوفرى وقد أظهر نبوغا كأخيه ابراهيم وعاد الى بلاده وتولى التدريس بعد وفاة أخيه ابراهيم وأنشأ ثلاثة مساجد أحدها في دار الشايقية والثاني في كورتى والثالث في الدفار وكان يدرس في كل مسجد أربعة شهور مقتديا في ذلك التنقل بين المساجد بأستاذه الشيخ محمد البنوفرى الذي كان يمضى أربعة شهور في القاهرة ومثلها في الاسكندرية ثم الأربعة شهور الأخيرة يقضيها في الحجارة حيث اعتاد أن يحج سنويا الى بيت الله الحرام ويروى أن الشيخ عبد الرحمن بن جابر درس مختصر خليل المالكي في تلك المساجد أربعين مرة .

ومن الشيوخ العلماء الذين درسوا على الشيخ عبد الرحمن ابن جابر الشيخ عبد الله بن دفع (٢) الله العركى الذى عاد الى اقليم الجزيرة في أواسط السودان وأخذ ينشر العلم هناك في تلك الربوع مترسما خطى أستاذه في العلم وتولى مهمة القضاء أيضا . وقد ذهب الشيخ عبد الله العركى الى الحجاز وتولى تدريس الناس هناك في مقام الامام مالك ثم عاد الى بلاده رغم الحاح أهالى مكة للبقاء معهم ومواصلة تدريسه لهم .

وممن درسوا على الشيخ عبد الرحمن بن جابر الشيخ

(١) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١١ .

(٢) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١٢ .

ومنظومته في التوحيد على الشيخ على الأجهوري وعاد لينشر العلم بدوره في ربوع البلاد .

وهناك كثيرون غيرهم أمثال القاضي على ود (١) عشيبي الذي درس على الشيخ البنوفري وولي القضاء والشيخ محمد جمال الدين (٢) المعروف بحلاوي والذي كانت له دراية بالفتاوى والأحكام نوردهم على سبيل المثال . لا الحصر .

عاد أولئك الرواد إلى بلادهم بعد أن أخذوا عن أساتذتهم في الأزهر ما تيسر لهم من العلم وما أهلهم للتدريس والفتيا في بلادهم عادوا وكل منهم يحمل اجازة علمية من استاذة أو اساتذته كما جرت العادة آنذاك ولم تكن تلك الاجازات تمنح الا لتوايح الطلاب فما كان الأستاذ يقبل لنفسه أن يمنح اجازة لغير مستحقها إذ يرتبط اسمه بهذه الاجازة مثل ما جاء في الاجازة التي منحها العلامة ابن الملقن للعالم القلقشندي إذ تنتهي الاجازة بقوله :

« . . واجزت له مع ذلك أن يروى عني من التأليف ومنها جامع الجوامع أعانه الله على أكمله وكذا شرح « صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري » ومنها « البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير للامام أبي القاسم الرافعي » وبه تكتمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها .

واجزت له مع ذلك ماجاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله زاده الله وإبائى من فضله ومنها الكتب الستة - البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والمسائيد - مسند أحمد ومسند الشافعي وغير ذلك . »

لقد أصبح أولئك الرواد والوافدون من علماء الأزهر المصريين وتلامذتهم نواة المجتمع ودعامته فأقبل عليهم الطلاب من كل فج وأخذوا يتلقسون العلم عليهم وتيسوق مثالا لذلك ما ذكره مؤرخ دولة سنار (١٥٠٤ - ١٨٢١ م) عن أحد العلماء السودانيين الذين علا صيتهم وهو الشيخ الزين بن صغيرون وكان قد درس على والده الشيخ صغيرون الذي درس على الشيخ محمد البنوفري في الأزهر فقد قيل أن الشيخ

(١) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١٤ .

(٢) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ٧١ .

عن هذه الأسرة - أسرة أولاد جابر - يقول أحد المؤرخين السودانيين (١) : أنهم وضعوا أساساً قوياً للحياة الإسلامية في السودان فقد نشروا العلوم الإسلامية ووضعوها منهجاً لدراساتها وتضاعف مجهودهم على مدى السنين عن طريق الطلاب الذين تلقوا العلم عليهم ثم نشره بدورهم في أرجاء مختلفة من السودان كما قام هؤلاء الطلاب بتطوير رسالة مشايخهم أولاد جابر وذلك بإدخال مواد إسلامية في خلاويهم ومساجدهم كما اتصفوا بالاجتهاد الذي تدل عليه الكتب المختلفة التي ألفوها في شتى ضروب المعرفة الإسلامية .

ولم يكن نشاط تلاميذ أولاد جابر يقتصر على التدريس أو التمرس بالتصوف بل مارسوا أيضاً القضاء الشرعى وبرهنوا من خلال ممارسته على تمكنهم من العلم والمسام واسع عميق به ومثلما كان لأولاد جابر منهج في التعليم فقد كان لهم أيضاً منهج في التربية تمثل في نظرتهم للحياة ومفاهيمهم للحياة الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين واصلوا تعليمهم في الأزهر الشيخ عبد الرحمن (٢) حمدتو الخطيب الذي تتلمذ على الشيخ البنوفرى وعاد للسودان ليقيم بتدريس مواطنيه وقد تخرج على يديه عدد من العلماء نذكر منهم الشيخ عبد الله الأغيش عميد أسرة الغبش والذي قدم أهله من دنقلا في الشمال ولد في بربر جنوبها وأنشأ فيها مسجداً مازالت شعلة العلم تنقد فيه منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا .

من تلاميذ الشيخ عبد الرحمن حمدتو الشيخ ابراهيم (٣) بن عبودى المعروف بالفرضى وسمى كذلك لطول باعه في علم الفرائض الذى ألف فيه حاشية عرفت بالفرضية وظل عاكفا على تدريس الناس في منطقة النيل الأبيض الى أن توفاه الله .

ومن الذين تخرجوا في الأزهر كذلك في تلك الفترة من الزمن الشيخ عبد الرحمن (٤) بن ابراهيم بن أبى ملاح الكنانى والد الشيخ خوجلى العالم المشهور في توتى . درس الشيخ عبسد الرحمن مختصر خليل

(١) د. سر الختم عثمان = أولاد جابر - ص ٢٥ .

(٢) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١٥ .

(٣) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ٢٢ .

(٤) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١١٥ .

ومنظومته في التوحيد على الشيخ على الأجهوري وعاد لينشر العلم بدوره في ربوع البلاد .

وهناك كثيرون غيرهم أمثال القاضي على ود (١) عشيبي الذي درس على الشيخ البنوفري وولي القضاء والشيخ محمد جمال الدين (٢) المعروف بحلاوي والذي كانت له دراية بالفتاوى والأحكام نوردتهم على سبيل المثال لا الحصر .

عاد أولئك الرواد إلى بلادهم بعد أن أخذوا عن أساتذتهم في الأزهر ما تيسر لهم من العلم وما أملم لهم للتدريس والفتيا في بلادهم عادوا وكل منهم يحمل اجازة علمية من استاذة أو اساتذته كما جرت العادة آنذاك ولم تكن تلك الاجازات تمنح الا لنوابغ الطلاب فما كان الأستاذ يقبل لنفسه أن يمنح اجازة لغير مستحقها إذ يرتبط اسمه بهذه الاجازة مثل ما جاء في الاجازة التي منحها العلامة ابن الملحق للعالم القلقشندي إذ تنتهي الاجازة بقوله :

« . . واجزت له مع ذلك أن يروى عني من التأليف ومنها جامع الجوامع أعانه الله على أكماله وكذا شرح « صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري » ومنها « البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير للامام أبي القاسم الرافعي » وبه تكتمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها .

واجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله زاده الله وإياي من فضله ومنها الكتب الستة - البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والمسائيد - مسند أحمد ومسند الشافعي وغير ذلك » .

لقد أصبح أولئك الرواد والوافدون من علماء الأزهر المصريين وتلامذتهم نواة المجتمع ودعامته فأقبل عليهم الطلاب من كل فج وأخذوا يتلقون العلم عليهم ونسوق مثالا لذلك ما ذكره مؤرخ دولة سنان (١٥٠٤ - ١٨٢١م) عن أحد العلمساء السودانيين الذين علا صيتهم وهو الشيخ الزين بن صغيرون وكان قد درس على والده الشيخ صغيرون الذي درس على الشيخ محمد البنوفري في الأزهر فقد قيل أن الشيخ

(١) محمد عشيبي الله - الطبقات - من ١١٤ .

(٢) محمد عشيبي الله - الطبقات - من ٧٦ .

الزين » جلس في حلقة أبيه من بعده وشدت اليه الرجال وضربت آباط
الأبل وطال عمره واشتهر ذكره وأخذت عليه الأبناء والآباء والأحفاد
والاجداد وبلغ تدريسه خمسين ختمة وبلغت حلقاته ألف طالب وتلامذته
أصبحوا شيوخ الاسلام » .

وهكذا نشأت المدن والقرى حول أولئك العلماء وتولت بيسوت
دينية بعينها تأسيس المدارس وإيواء الطلاب ونشر العلم في البلاد
منذ ذلك العهد الى يومنا هذا كمدارس الشايقية في دنقلا والفش في
بربر والمجاذيب في الدامر وقوز العلم في شندى وتوتى والعليفون
وكرانج وابى حراز وأم ضوابان وكثير غيرها .

● العلماء المصريون الأزهريون فى السودان

ولم يكن العلماء السودانيون الذين تخرجوا فى الأزهر هم وحدهم حملة رسالته فى السودان فى ذلك العهد فقد كان هنالك نفر من علماء المصريين الذين اسهموا بقسط وافر فى نشر العلم فى ربوع بلادنا نذكر منهم :

الشيخ محمد (١) المصرى القناوى :

واصله من مدينة ادفو بصعيد مصر درس على الشيخين سالم السنهورى مفتى المالكية ويوسف الزرقانى والد الشيخ عبد الباقي شارح مختصر خليل وكان زميلا للشيخ أبى الحسن الشاذلى المصرى - قدم السودان فى منتصف القرن العاشر الهجرى الموافق القرن السادس عشر الميلادى وتنقل بين مدنه واستقر فى مدينة بربر القديمة المعروفة آنذاك بالمخيرف بعد أن طاب له المقام فيها لجودة مناخها .

كان دافع الشيخ المصرى القناوى لزيارة السودان والاقامة فيه نشر العلم بين أبنائه ابتغاء وجه الله واحتسابا فبادر بتشسييد مسجد بالمخيرف واقبل عليه طلاب العلم من كل صوب وجذب كما ترك مؤلفات فى الشرح على عقيدة السنوسى الصغرى وكتاب العشماوية ورسالة فى البسطة وشرح على الشمسية فى علم المنطق وتبوأ منصب القضاء

(١) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ٣٩ -

الذى باشره بنزاهة وعدل وعرف بالتقوى والورع وكان قد عمر طويلا .

وقد تتلمذ عليه الشيخ محمد (١) بن عيسى بن صالح المعروف بسوار الذهب الذى قرأ عليه العقائد والمنطق وعلوم القرآن وأصبح فيما بعد من أجل علماء السودان .

ومن تخرج على الشيخ المصرى القناوى حفيده الشيخ محمد المصوى (٢) ولطيفه هذا مؤلفات منها شرح القصيدة المنظومة فى فن التوحيد وهو شرح مطول يكثر فيه من النقل عن كتب لها مكانتها فى فن التوحيد ويعتبر هذا الشرح أوسع من شرح الشيخ سعد الدين التفتازانى على العقائد التيسفية . ومن تلاميذ الشيخ محمد المصوى الشيخ خوجلى عبد الرحمن أبو الجاز المعروف بأزرق توتى ومنهم أيضا أولاد سوار الذهب الذين قدموا اليه من دنقلا وهم بدورهم رجعوا لمنطقتهم يدرسون العلم هناك .

ثم انتقل الشيخ المصوى الى شتى جنوبا وأقام فيها هناك يدرس للناس الفقه المالكي - المختصر وشرح المختصر والرسالة وعلوم اللغة والبلاغة والتفسير والحديث وقد بلغ عدد طلبته ثلثمائة طالب .

الشيخ محمد بن على (٣) بن قوم الكيماني :

وهو من العلماء المصريين - قدم البلاد حوالي ٩٧٠ هـ / ١٥٦٣ وزار اريجى فى منطقة الجزيرة وسنار ثم بربر حيث استقر بها ويقال أنه اول من درس المذهب الشافعى فى السودان وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم الشيخ عبد الله العركى والقاضى دشين الملقب بقاضى العدالة والشيخ ابراهيم الفرضى .

وكان الشيخ بن قرم قد درس فى مصر على الشيخ محمد الخطيب الشربيني احد اعلام الشافعية هناك .

(١) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١٦٥ .

(٢) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١٩٢ .

(٣) محمد ضيف الله - الطبقات - ص ١٦٩ .

● مؤلفات العلماء السودانيين

لقد عني بعض أولئك العلماء السودانيين بتأليف الكتب الدينية (١) واللغوية اسوة برصفائهم في مصر والشام والمغرب والبلاد الاسلامية الأخرى نذكر منهم الشيخ ارباب بن عون المعروف بارباب العقائد المتوفى عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م مؤلف كتاب الجواهر في أركان الايمان ووصف الكتاب بأنه كان ذا نفع عظيم وقد علمت ان نسخة منه موجودة اليوم في المغرب ضمن مخطوطات أخرى كثيرة وارباب هذا درس الفقه على الشيخ الزين بن صغيرون الذي درس على أبيه صغيرون وهو الذي قرأ على اخواله أولاد جابر وعلى الشيخ محمد البنوفري في مصر كما درس ارباب العقائد علم التوحيد على الشيخ علي ودبري المتوفى عام ١٠٧٣ هـ / ١٦٦٣ م / والذي درس على الشيخ صغيرون الذي ورد اسمه آنفا .

كذلك ألف الشيخ ابراهيم بن عبودي المعروف بالقرضي كتابا في علم القرائض وقد درس على الشيخ عبد الرحمن بن حمدو الذي درس في الأزهر على الشيخ البنوفري - غير ان أولئك العلماء أكثروا من شرح بعض الكتب التي كانوا يدرسونها طلابهم لتناسب المستوى العلمي أو المرحلي لطلابهم اذ ان بعض الشروح المطلوبة كانت متعبة العبارة وغريبة المبنى فبسطوها بما يلائم بيئتهم وفي ذلك ما يدل على طول باعهم في المعرفة واصالة التفكير التربوي ومدى انضباطهم في سبيل البحث العلمي .

ومن بعض تصانيف أولئك الفقهاء والتي جاء ذكرها في كتاب الطبقات :

(١) راجع يوسف فضل - دراسات في تاريخ السودان ج ١ من ١١١ إلى ١١٨ .

- شرح مختصر خليل لكل من ضيف الله بن علي ومختار بن جوده الله .
- حاشية على مختصر خليل لمحمد بن عبد الله بن حمد الاغبش .
- حاشية على خليل لموده التنفار .
- رسالة في الفتاوى والاحكام لعبد الرحمن بن جابر .
- شرح الرسالة لمكي النحوى الرباطي .

في علم التوحيد :

- شرح أم البراهين الصغرى والكبرى لعلى بن برى وقيل انها سار بذكرتها الركبان .
- الحاشية على أم البراهين - الوسطى والصغرى والعمدة لمحمد بن المضوى كما كتب شرحا في بدء الأمل لسراج الدين بن عثمان الاوشى وتوجد نسخة من هذا المخطوط في مكتبة المعهد العلمى بام درمان كانت ملكا للعالم السودانى الشيخ يوسف الطريفى المعروف بأبى شرا المتوفى عام ١٢١٧ هـ / ١٨٠٣ م / وقد وصف صاحب الطبقات هذه الشروح والحواشى بقوله « شأنها ان تكتب بماء الذهب » .

وقد شرح عقيدة رسالة ابن أبى زيد القيروانى كل من محمد المضوى ومكى النحوى الرباطي .

كما شرح مقدمة السنوسى كل من على حموده الكاهلى (شرمان) وثمانم أبو شمال وعبد القادر البكاى ومحمد بن عدلان الشايقى (شرمان) ومكى النحوى الرباطي الذى شرحها فى أربعين كراسا ونظم عبد الله ابن دفع الله العركى نظميين على كبرى السنوسية ومقدمات الأشعرية .

وآلف مالك بن عبد الرحمن ولد حمدة ثلاث حواش على الميراث كبرى ووسطى وصغرى وقد وصفت بانهن كن فى غاية الابداع .

وقد قام بشرح الجزرية وهى منظومة مشهورة فى التجويد لشمس الدين أبى الخير بن ياسين الدمشقى القرشى الجزرى من أئمة الحفاظ وعلماء القراءات المتوفى عام ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م كل من المضوى محمد المضوى وعبد الرحمن بن حمد الاغبش .

وحقيقة لقد سار أولئك العلماء على نهج أساتذتهم ومن سبقوهم من فقهاء المسلمين في الاكثار من الشروح منذ سقوط بغداد في أيدي المغول وعهد المساليك (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م) والحكم العثماني في مصر (١٥١٧ هـ - ١٨٠٥ م) اذ تجد العلماء أكثروا من الشروح بل وشرح الشروح واختصصوها والتحشية عليها وتهميشها والتنبيه على ما فات واضعيتها .

لقد عاش العلماء السودانيون في فترة كان الحكم العثماني يجثم على صدر الأمة الاسلامية وبالذات مصر وهو عصر يمكن ان نسميه دون مبالغة عصر انحطاط وضعف الثقافة الاسلامية واللغة العربية واذا رجعنا الى علماء الأزهر في تلك الفترة لا نجد منهم من بلغ شهرة وشأوا بالمقارنة مع مجموع العلماء الافذاذ الذين قادوا الفكر الاسلامي في مختلف فروعه كالבוصري والنويري والسبكي والعمري وابن عقيل والبنقيني وابن خلدون والفنقشندي والمقریزی والمافظ بن حجر والعيني والسيوطي والسيوطي وابن اياس وغيرهم .

لقد كانت مكتبات أولئك العلماء تمتلئ بالنفيس من الكتب اقتنوها وجمعوها بعد جهد ومشقة ودفعوا ثمنها لها كل ما كانوا يملكون وكان جلها ان لم تكن كلها ثأنيهم من مصر على يد الراحلين في طلب العلم فكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الطلبة كما كانت مصدرا هاما للهجرات العربية وللرواد من العلماء الذين وضعوا الأساس الثقافي لهذه البلاد ومن طريف ما يروى ان الفقيه حامد اللين بن سليمان باع عبدا ليشتري بثمانه كتاب الشبراخيتي على خليل وكان أول من أحضر شرح عبد الباقي على خليل الى السودان وعبد الباقي هذا هو عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي والذي كان يدرس في الأزهر وشهد له بالتميز في العلم والفقه وقد توفي عام ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م .

ويروى أيضا عن الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن بان النقا المتوفي عام ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م اهتمامه باقتناء الكتب المتنوعة ولما فرغ من نسخ كل ما عثر عليه في داخل البلاد أرسل الى مصر والحيجاز ليشتري غيرها فتكونت له مكتبة ذات ست خزانات كما أحضر العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب الذي ورد ذكره في غير هذا المكان رحلين أو ثلاثة من الكتب من مصر وكذلك كان للشيخ ابراهيم العودي خطيب سنار ومدرسها على مذهب الشافعي خزانة كتب موقوفة على طلبة العلم .

لقد ترك لنا أحد فقهاء السودان دراسة عن سير لماثين وسبعين من علماء السودان في ذلك العهد (٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م الى ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م) تدل على سعة معارفهم ونبوغهم في مختلف صنوف العلم ويقول مثلاً عن الشيخ حجازي انه كان طبيباً ماهراً كانه ابن سينا في حكمته وشاعراً حاذقاً كانه كعب بن زهير في شعره وله معرفة بالخط الحسن كانه ابن مقله في خطه ويعرف جميع الأقلام العبرانية والسريانية واليونانية وله معرفة بصناعة الكيمياء كانه جابر في صنعته وهذا الوصف وان كانت تشوبه المبالغة الا انه يلقي ضوءاً على نبوغ الشيخ حجازي كما يدل على أن قراء ذلك العهد يعرفون شيئاً عن الاعلام الذين ورد ذكرهم .

وهذا المعجم الذي نحن بصددده هو كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان للفقير العالم محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي المولود بحلقاية الملوك عام ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م والمتوفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م وهو يتحدث عن سيرة علماء وفقهاء ومتصوفة ذلك العصر والمنهل الثقافي والفكري الذي استقرا منه وهو بطبيعة الحال سجل هام لحياة السودانيين الدينية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية في دولة سنار .

ويستهل المؤلف معجمه بمقدمة جاء فيها « . . . وبعد فقد سألني جماعة من الاخوان أفاض الله علينا وعليهم سبحانه الاحسان واسكننا واياهم أعلى فرديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة في السنة وبعد الالهام مع انه لم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع في هذا الشأن الا أن أخبارهم متواترة عند الخاص والعام منها ما بلغ حد التواتر عندهم فاجبت ان أذكر ما تواتر واشتهر من تلك الأخبار وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأصوليين من الأقسام اليقينية التي تفيد العلم بالشئ وتنفي عنه الشك والظن والوهم وقد اقتديت بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين فانهم ألفوا في التاريخ والمناقب كالامام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور والجلال السيوطي في كنز حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة والحافظ بن حجر ألف كتاباً في علماء عصره سماه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة والشيخ أحمد المقرئ ألف كتاباً سماه نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وأخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب . . . »

اهتم علماء المسلمين بعد ان وقعت البلاد الاسلامية في يد التتار بالتأليف وخاصة كتب التاريخ وتراجم الاعلام كما هو معروف وربما أخذ

مقدمته تلك من كتاب حسن المخاضرة للسيوطي الذي يذكر انه اقتدى في كتابه ببعض من تقدمه ممن ترجموا لأنفسهم ومنهم عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور وياقوت الحموي في معجم الأدياء ولسان الدين الخطيب في تاريخ غرناطة والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة وابن حجر المسقلاني في قضاة مصر وأبو شامة في الروضتين - ولكن يبدو انه تأثر في منهج الكتاب بالشميخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه : -

(الطبقات الكبرى) .

ونحن لا نود ان نقف موقف الناقد للكتاب فهو على أي حال سفر عظيم عن فترة هامة في تاريخ الثقافة والفسر في السودان . لا غنى لأى باحث عنه . لقد وضعه مؤلفه باللغة السودانية الدارجة وحققه العالم السوداني دكتور يوسف فضل وعلق عليه وكتب عنه مقدمة مستفيضة لا غنى لأى باحث في تاريخ تلك الحقبة عنها .

كان ملوك سنار وسلاطينها يعظمون العلماء ويجلونهم وينزلونهم مكانة كبرى في نفوسهم وقد كان أولئك الملوك على قدر كبير من العلم والفقه ويروى ان الملك السناري (١) ناصر بن بادى الذي حكم من ١١٧٥ هـ / ١٧٦٩ م الى ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م قتل وكان المصحف على يمينه والموطأ كتاب الامام مالك على شماله .

كان سلاطين سنار يسرون وفدا محملا بالمال والذهب الى الأزهر بعد الحصاد من كل عام كما كان بعضهم يرسل علماء الأزهر ويجزل لهم العطاء كما سجل ذلك العالم الأزهرى عمر (٢) المغربى فى قصيدة بعث بها الى السلطان بادى بن رباط المعروف بأبى دقن - والذي حكم ثمانية وثلاثين عاما ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٥ م يمدحه ويشكره على هداياه له نذكر منها فى وصف سنار عاصمة الملك .

الى صاحب العلياء والجود والبر
ويقتحم الاوعار فى المهمة القفر
وازهرها المعمور بالعلم والذكر
وقوف محب وانتهاز فرصة الدهر
تجد كل ما تهوى النفوس من الأمر

ايا راكبا يسرى على متن خسامر
ويطوى اليه شقة البعد والنوى
ويتهض من مصر وشاطئ نيلها
لك الخير ان وافيت سنارقف بها
والقى عصا التسيار فى سوح انسها

(١) نعم شقير - جغرافية وتاريخ السودان - طبعة دار الثقافة بيروت - ص ٣٩٨ .
(٢) احمد بن الحاج - كاتب الشونة - ص ١١ تحقيق الشاطر بصيلي .

وعندما دالت دولة سنار بكى عليها شاعرها ونعاها بقصيدة
تباين مرثية أبي البقاء صالح الرندي المشهورة منذ سقوط مدن الأندلس
والتي جاء فيها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يفر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءت أزمان
أين الملوكة ذوو السيفان من يمن	وأين فيهم أكالييل وتيجان
وأين ما شاهده شمسداد من أدم	وأين ما ساءه في الفرس ساسان
وأين ما حازه فارون من ذهب	وأين عساد وشمسداد وقحطان
أني على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا وكان القوم ما كانوا
دها الجزيرة أمر لا عزاء له	هوى له أحد وانهد نهبان
لبكى الحليفة البيضة من	أسف كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الأسس خالصة	قد أفقرت وأهسا بالكفر عمران
بالأفس كانوا ملوكا في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

قال الشاعر السوداني يبكى (١) على سنار ويصف مشاعر اللوعة
والحزن ويرسل أحكاما عامة وزوال النعم وإن الدنيا دار رحيل لا تدوم ،
إلى غير ذلك .

أرى لدهرى اقبالا وادبارا	فكل حين يرى للمرء أخبارا
يوما يربه من الأفراح اكملها	يوما يربه من الأحزان اكسارا
والدهر هذا فلا تبقى محاسنه	فيبدل المرء احسانا واضارا
فأين عاد وشمسداد وما ملكوا	وأين فرعون والنمرود اذ جارا
وأين كسرى وأين الوالي وقصرهم	وأين جمعهم فقد صار أخبارا
أه على زمن قد كان في طرب	كنا بجمع من الأحباب سمارا
أه على بلد الخيرات ونشأتنا	أعنى بذلك دار الفونج سنانا
فأوحشت بعد ذاك الانس وارتجلت	عنها الامائل بدوانا وحضارا
وصار عمرانها المحسون مناسرا	يصيح يوم به في الليل حرارا
وابدلت دولة الاعزاز من همج	كانهم لم يكونوا الدهر أوزارا
فمنصب الملك والتعظيم منطمس	كانه لم ينل بالفخر اظهسارا
بماجد كانوا كرام الناس منقبة	بسيرة كامل الفضل أحرارا
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر	أجريت دمك اغسلانا واسرارا

(١) أحمد بن الطح كاتب الشروحة - مخطوطة - تحقيق الشاعر بوصيل ، ص ٨١ .

أنمة الدين يا هذا لهم شرف
تبكى مساجد أهل الله خادمة
فابشروا بفضل الله سسادتنا
تبكى محاكمهم تبكى مدائسهم
ففيهم حكموا الرصاص والنار
ترمي عليهم دموع الحزن اقطارا
فقد حظيتم بخير النزل اجهارا
تبكى مفاخرهم تنبئك أخبارا

ويلاحظ ضعف القصيدة والاختفاء بها فهي من نوع الشعر الضعيف
الذي سبق نهضة الشعر في العالم العربي ولكنها تمتاز بحرارة عاطفتها
ومى تطلع من أرقى أشعار ذلك العهد .

وبعد أكثر من مائة عام بكى سنار الشاعر السوداني محمد سعيد
العباس بقوله :

زوت سنار والجسوانج أسرى
أن محبا الدهر حسنها فنقصد
لهف نفسي فقصدت يا قبلة الخير
كنت مثوى للاكرمين وميدانا
ورحبا قد زينت وقبابا
عاش ما عاش وهو جد أبى
ارخصسوا فى هوائك كل عزيز
فرقتهم يسد الزمان اناديسد
قد شققنا من بعدكم فنوردنا
زفرات هدت قوى الصبر هدا
كانت مرادا كلمعتفين وخلصدا
كهسولا حموا حماك ومردا
رخيما خيلهم ومنسدى
زان ارجاءها مليك مفدى
لم يعثر لفسر مسولاه خسدا
قتباروا فى الحرب والسلم جندا
ومسا خلفوا لعمرى ندا
يا كرام الحمى من الهول وردا

● الأَزهَر والقضاء والفتاوى فى سلطنة سنار

انتظم القضاء والفصل فى النزاعات المدنية والأحوال الشخصية عند قيام سلطنة سنار . فى عهد الشيخ عجيب (١٥٦٣ - ١٦١٠ م) زعيم القبائل العربية المتحدة آنذاك وأحد حكام دولة سنار على أسس الشريعة الإسلامية أسوة بما كان يجرى فى مصر والشام والحجاز فى القرن العاشر الهجرى هذا مع تطبيق لبعض القوانين العرفية .

كان هناك قاض يحكم فى (١) جميع المنازعات بالقانون السماوى - القرآن الكريم ولم يكن موزعا الى مدنى وجنائى وأحوال شخصية وكان يشترط على القاضى أن يكون : -

حافظا للقرآن الكريم عارفا لأحكامه مجودا له وان يكون قد ألم بطرف غير يسير من علم الكلام أى التوحيد . وان يكون متبحرا فى علوم الفقه وان تكون دراسته على مذهب الامام مالك اذ هو السائد فى السودان منذئذ والى اليوم . كما يشترط بعضهم ان يكون القاضى سالكا للطريق الصوفى وهو فى الأغلب الطريقة القادرية ومشتقاتها . كما يتعين عليه ان يعرف اللغة العربية ويلم بها اللأما كافيا .

وقد يلجأ أحد المتقاضين اذا لم يكن راضيا عن حكم صدر عليه من أحد القضاة لقاض آخر ويعرض عليه قضيته فيما يشبه الاستئناف وهنا قد تجرى مناظرات ومحاورات بين القضاة يكون الحكم فيها على ما استقر عليه رأى القضاة وفى بعض الأحيان يحتكمون الى علماء مصر فيما نشأ

(١) محمد محيى الدين - مشيخة العبدلاب ص ٤٢٨ .

بينهم من خلاف (١) . كما حدث في قضية حكم فيها القاضي السوداني عبد الرحمن بن مشيخ التويري متخرج الأزهر على امرأة تبرعت بثلاث ماله قاصدة بذلك ضرر زوجها حكم برد المبلغ ونازعه فقها زمانه وكاتبوا الشيخ الاجهوى العالم المالكي في الأزهر فاجابهم بصحة الحكم مراعاة للعرف والمصلحة .

كذلك عندما دخل التبغ في مصر وبدأ انتشاره في العالم العربي ومنه السودان في نهاية القرن العاشر الهجري اختلف العلماء السودانيون فيما بينهم فمنهم من اباحه ومنهم من حرمه تماما مثل ما جرى في مصر وقد وقف الشيخ (٢) ادريس الارياب العالم والمتصوف السوداني معارضا الشيخ عليا الاجهوى الذي أفتى باباحته ومؤيدا الشيخ ابراهيم اللقاني صاحب جوهرة التوحيد في حرمة . أما العالم السوداني الشيخ عبد الوهاب رجل أم سنبل . فقد عارض الشيخ ادريس وأيد الشيخ اللقاني محرما استعمال التبغ وجرى مناظرات عدة بين العالمين السودانيين في ذلك ثم أرسل الشيخ ادريس رسالة خاصة الى الشيخ الاجهوى حملها رسول منه هو حمد ولد أبي عقرب يعارضه فيها ويورد له حجته في تحريم التبغ وكانت بينهما مراسلات ودية من قبل . كذلك كانت هناك صلات ورسائل مودة بين بعض علماء السودان وعلماء الأزهر منها ما كان بين الشيخ محمد الحراشي امام المالكية في مصر وأول امام للأزهر وبين العالم السوداني الشيخ ابراهيم صغبيون وقد أهدى العالم السوداني جارية الى الشيخ الحراشي الذي بعث له بدوره نسخة من شرحه الكبير على مختصر خليل في مذهب مالك الذي عم النفع به شرقا وغربا كما يقول المؤرخ السوداني محمد ضيف الله المتوفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨١٣ م .

وتوجد الآن بعض الأحكام التي صدرت في العهد السناري (١٥٠٥ هـ - ١٨٢١ م) في نزاعات حول الأرض ما زال أصحابها يحتفظون بها ويتخذونها وثائق لاثبات ملكيتهم للأرض وقد قدمت للقضاء السوداني في الحكم البريطاني وسجلت لهم أراضيهم بمقتضى تلك الأحكام وهي تدل على ما كان عليه القضاء آنذاك من نزاهة وفهم للمسائل العلمية (٣) .

(١) ود ضيف الله - الطبقات - ص ٩٩٤ .

(٢) ود ضيف الله - الطبقات - ص ٩ .

(٣) القاضي يوسف ابراهيم النور - صفحة من تاريخ السودان القديم - القضاء -

مقال في مجلة الفجر السودانية مارس ١٩٣٧ .

كان جل الفقهاء الذين تولوا القضاء في سلطنة سنار من متخرجي الأزهر أو ممن درسوا على متخرجه ولم تكن تصرف لهم مرتبسات بل السلاطين يجزلونهم العطاء ويمنعونهم أراض يعيشون منها وكانت أموالهم معفاة من الضرائب والعشور ، كما لم يكن الحاكم يتدخل في أحكام القضاة لأنها كانت قائمة على القانون السماوي ولم يكن أحد يخالفها وبالذات فيما يختص بالأحوال الشخصية إذ يعتبر فسوقا وخروجاً عن حكم الشريعة .

● سلطنة دارفور والأزهر

أسس هذه السلطنة الإسلامية السلطان سليمان صولون عام ١٦٤٠ وب لغت النهضة الإسلامية في هذه السلطنة أوجها في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى وقد اتسعت رقعتها حتى شملت إقليم دارفور بأكمله وجزءا من كردفان ثم سقطت في فترة الحكم التركى على السودان عام ١٨٧٤ وأصبحت جزءا منه .

لقد عمل سلاطين دارفور منذ عهد مؤسس الدولة الإسلامية سليمان صولون (١٦٤٠) م على تشجيع العلماء من مصر وسنار وتونس ودهونهم للإقامة في بلادهم لتدريس أهلها أصول الدين الإسلامى . كما شجعوا مواطنيهم للسفر الى مصر طلبا للعلم فى الأزهر وأقاموا لهم رواقا هو رواق دارفور . وكانوا هم أنفسهم يمثلون القدوة الحسنة لمواطنيهم فلم يكن يتولى الحسكس أى منهم الا اذا كان حافظا للقرآن . لقد أقام أولئك السلاطين مساجد عديدة يكاد يكون فى كل بلدة مسجد أو أكثر يتعلم فيه الصبية الكتابة والقرآن ومع كل مسجد زوايا ومساكن للمجاورين لدراسة العلوم الشرعية ومن أشهر تلك المؤسسات العلمية خلاوى طره وشويا والطينة وجوامع الفاشر وكوبى وجديد السيل وكان فقهاء تلك الدور العلمية من الأئمة المتفقهين فى الإسلام .

وكان السلاطين يهبون العلماء اقطاعات من الارض يعيشون عليها من ريعها هم وتلاميذهم .

لقد انتقل الى دارفور من سنار علماء سودانيون تخرجوا فى الأزهر أو درسوا على علماء من متخرجى الأزهر أخذت منهم البلاد هناك ولقوا

حظوة عند سلاطينها نذكر منهم الشيخ أبا سرور الفضلي الجعلي وكذلك الشيخ أبا زيد بن الشيخ عبد القادر والشيخ حسن ولد عماري .

ومن أشهر ملوك دارفور الذين شجعوا هجرة العلماء لدارفور هو السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٢٠١ - ١٢١٥ هـ / ١٧٨٧ - ١٨٠١ م) لما عرف عنه من علمه وحب العلماء وقد وفد عليه عدد كبير نذكر منهم من قبيل المثال الشيخ عمر التونسي الذي تخرج في الأزهر وكان قد قدم سنار أولا ثم دارفور حيث لقي هناك رهطا من علماء دارفور اجتمعوا به وأكرموه منهم الفقيه مالك الذي وصفه محمد بن التونسي بأنه أعظم الوزراء العرب ومنهم الفقيه محمد كريتم والشريف سرور بن أبي الجود وعبد الكريم بن الفقيه حسن ود عووضه وأحزابهم ومنهم الشيخ عز الدين الجامعي وحسين ود عماري وهما من متخرجي الأزهر والشيخ غرباوي وغيرهم .

لقد قويت شوكة الاسلام في دارفور في عهد هذا السلطان وأولئك العلماء ويقال ان السلطان بنى تسعة وتسعين جامعا في سلطنته اصبحت مؤثلا لطلاب العلم والدرس .

وبعد وفاة السلطان عبد الرحمن الرشيد خلفه ابنه محمد الفضل (١٢١٥ - ١٢٥٤ هـ / ١٨٠١ - ١٨٣٩ م) الذي تولى تربيته وتعليمه هو وأولاده الفقيه الأزهرى حسين ولد عماري ولعله من المناسب ان ننقل نص الكتاب (١) الذي رد به السلطان محمد الفضل على رسالة محمد علي باشا عام ١٨٣٠ يدعو فيها للتسليم والخضوع له أسوة ببقية بلاد السودان وقد حرر ذلك الكتاب العالم الأزهرى ود عماري :

« الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعا سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى واليه المعاد والرجعى وهو حسبي وكفى . من حضرة من أمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعا من كل أحد وصيره في قلوب الأعداء نارا تستنعر وحجرا يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغي وتمرد ومن ضل وتعند وهو شاب صغير السن ولو صار كهلا خضعت له الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعواضه انجم السعود وان قامت الهيجاء بنفسه يجود ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود .

(١) نعوم شقير - جغرافية وتاريخ السودان طبعة دار الثقافة بيروت ص ٤٦٢ -

هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبيد الرحمن الرشيد أعزه الله .
« الى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الانام وقدوة الليالى
صاحب العز والافتخار اخينا العزيز محمد على باشا سلمكم الله تعالى من
المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات يسنه وكرمه »

أما بعد :

فسلام عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم
الله الى رضوانه وفهمنا خطابكم وبمقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم
يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفى من ذلك كلمة الحى القيوم حيث قال
(له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ الا كباسط
كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) . .
« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » .

انكم طالبون دولتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم انفسا كفار وجب لكم
قتالنا وأببح ضرب الجزية علينا أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية
فنحن السلاطين وهم الرعية ؟ أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك أم
ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك أم خطر لك خاطر من عقلك
بأن لك ربا قويا ولنا رب صغير الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون
ولا مبتدعون فدين بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نؤدى الفرائض ونترك المحرمات. ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر
والذى لم يصل تأمره بالصلاة والذى لم يترك نأخذ منه الزكاة ونضمها
فى بيت المال ولا نلصقها ونرد الأمانات الى أهلها ونعطى كل ذى حق
حقه حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرما بأذن الله
تعالى ولو اشتدت به الريح فى يوم عاصف ألم تر الى قوله صلعم « لو
بغى جبل على جبل لك الباغى » أما علمت ان دارفور محروسة محمية
بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون
الى الهيجا بكرة وعشية . أما علمت ان عندنا العباد والزهاد والاقطاب
والأولياء والصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا هم بيننا
يدفعون شر تاركهم فتصير رمادا ويرجع الملك الى أهله ويكفى من بعد ذلك
والله يكفى شر الظالمين » .

استلم محمد على باشا الرسالة ولم يشأ ان يجازف ويرسل قوا
لغزو دارفور وانتهى بذلك الأمر الى ان سقطت عام ١٨٧٤ على يد القائد

السوداني الزبير رحمة باشا وضمها للسودان في عهد الحكم التركي والكتاب يصور في ايجاز ما كان عليه الحال والحكم في دارفور من عمل بالسنة والكتاب وأثر العلماء والفقهاء في المجتمع الديني بطبيعة الحال .

وفي عهد السلطان محمد الفضل أتى العلامة الأزهرى محمد عمر التونسي الى دارفور عام ١٨٠٣ ليحقق بوالده هناك والذي ورد ذكره آنفا عندما هم والده بالعودة الى بلاده تونس طلب منه السلطان محمد الفضل ان يبقى معه في دارفور بدلا عن أبيه - أقام محمد التونسي في دارفور سبع سنوات ألف بعد عودته لمصر كتاب « تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » والكتاب يعتبر مرجعا هاما عن دارفور في تلك الفترة . تحدث عن القبائل هناك وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقدات بعضهم وكل ما يتصل بمجتمعاتهم وبالرغم مما حواه الكتاب من مبالغات وتحامل على المرأة السودانية الأمر الذي لفت النظر اليه المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم الا انه أسدى خدمة جليلة للعلماء ومؤرخي ذلك العهد في دارفور .

يعتبر محمد عمر التونسي أحد رجال الأزهر الذين نهضت الصحافة والتأليف الأدبي على أكتافهم وهو المحقق اللغوى والعارف بالمصطلحات العلمية ومؤلف الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية .

كما زار السودان العالم التونسي الأزهرى محمد زين الدين (١) وأما في فيه عشر سنوات كان يعلم الناس ويصبرهم بشئون دينهم وتنقل في ربوع البلاد في سنار وكردفان ودارفور ووداي وكتب مخطوطا عن رحلاته هذه ولكنها فقدت ونشرت ترجمة لها باللغة التركية في اسطنبول عام ١٨٤٦ وصف فيها حضارتي دارفور ووداي وأنظمتها الاجتماعية وأورد بيانات مفصلة عن حياة القبائل هناك وتقاليدها وتجاريتها ويعتبر ذلك الكتاب تنمة قيمة لكتاب التونسي عن دارفور الذي سماه تشييد الأذهان .

كان زين الدين هذا على اتصال وثيق بالعلماء الأوروبيين الذين أقاموا في مصر في عهد محمد علي باشا .

لقد كانت في دارفور فعلا نهضة دينية مرموقة وكانت البنت هناك تتعلم قبل الولد بل كان شرطا أساسيا للزواج ان يكون الزوجان متعلمين ولذلك ليس غريبا ان نجد معظم نساء دارفور هن كبار السن يعرفن

(١) الأصول التاريخية للعلاقات العربية ص ٢٦٣ - د. كمال زكريا قاسم - المنظمة العربية للثقافة والعلوم - معهد البحوث .

القراءة والكتابة ويحفظن القرآن وكان مما أخذ على السائد السوداني الزبير باشا رحمة أنه حارب وقضى على دولة تدين بالاسلام وتتمسك به ويحرص نساؤها على حفظ القرآن كرجالهم بالفعل .

كان في دارفور انذاك علماء وفقهاء معروفون قبل سقوطها على يد الزبير رحمة عام ١٨٧٤ وكانوا يحظون بمكانة رفيعة في بلادهم وقسده وصفهم الزبير رحمة بأنهم اجل علماء دارفور وكان قد كتب اليهم راجيا التوسط بينه وبين السلطان ابراهيم حتى لا تقع حرب بينهما حقنا لدماء المسلمين ، هؤلاء الفقهاء هم سلامة بن الفقيه مالك وقمر الدين بن الفقيه محمد سالم والفقيه سالم والامام الضو بن الامام المصري امام السلطان ابراهيم ولعلمهم من متخرجي الازهر كما علمت . وعندما ضمت دارفور للسودان في عهد الحكم التركي كما ذكرنا توافد اليها وعمل فيها فقهاء ازهريون نذكر منهم العلامة أحمد محمد الجداوي الذي عمل في القضاء ثم نقل مدرسا لمدرسة الخرطوم وكذلك العالم السوداني محمد البدوي متخرج الازهر وتلميذ الشيخ عليش والذي أصبح فيما بعد شيخ علماء السودان والشيخ عبد القادر اسماعيل الكردفاني وقد ورد ذكرهم آنفا .

كانت لدارفور محاكم شرعية تحكم على كتاب الله وسنة رسوله صلعم ويقضى فيها علماء على مذهب الامام مالك وكان جل قضاتها من (١) متخرجي الازهر كما كانت لها محاكم عرفية تقوم على أساس العسرف السائد آنذاك .

وليس من السهل تحديد العلماء النابهل الذين لعبوا دورا محمودا في نهضة دارفور في العصر الحديث الا أننا نذكر منهم الشريف محممد الامين كرار والشيخ محمد أحمد آدم تيراب والاستاذ محمد أحمد سسوار والشيخ يعقوب حسين .

(١) القاضي حسين سيد أحمد المفتي - تطور القضاء في السودان ص ٥٩ .

● الحكم التركى فى السودان

(١٨٢١ - ١٨٨٥ م)

نادى الشعب المصرى بمحمد على باشا واليا على مصر بعد ثورة كبرى فى مايو عام ١٨٠٥ م الموافق لصفر سنة ١٢٢٠ هـ وما ان دانت له البلاد حتى بدأ يصفى الثورة شيئا فشيئا ويقهر زعماءها وينفيهم ويسخر طاقات الشعب المصرى تحقيقا لمصالحه ومآربه . وقد تورط فى حروب لا حاجة له بها وكان أشدها إيلا ما تلك التى شنها على الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية والتى كانت تنادى بمقظة اسلامية وبتحرير الشعوب من الاستبداد التركى .

— كان الرجل يرنو ببصره الى السودان كغيره من حكام مصر منذ فجر التاريخ فأرسل وفدا الى ملك سنار (السودان) كمظهر لمودته ومدخلا لصداقته وملتصبا منه طرد المماليك الذين لجأوا الى السودان بعد أن فتك بهم فى مصر وقطع أوصالهم ولكن مهمة الوفد الحقيقية كانت التعرف على أحوال البلاد وتقدير ما يلزمه من جيوش وعتاد لغزوها وعاد الوفد موضحا حالة الانقسام والتفكك الذى اعترى جسم دولة سنار وقد شجعه احد زعماء القبائل السودانية وهو الملك نصر الدين زعيم قبيلة الميرغاب فدعاه لغزو البلاد .

وكانت الفرصة مواتية لمحمد على لتحقيق مخططة فبادر باستصدار فتوى تسوغ له فتح السودان حيث ان الشرع الاسلامى لا يبيح حروب المسلم للمسلم كما اتصل بسلطان تركيا ولعله السلطان محمود الثانى يستأذنه فى فتح السودان وضحه الى مصر وقد وافق السلطان على ان يكون الفتح باسم خليفة المسلمين .

وأمر محمد علي باشا فسير في عام ١٨٢٠ جيشا بقيادة ابنه اسماعيل باشا لفتح البلاد وإظهارا لحسن نواياه واستغلالا لعواطف الناس الدينية أرسل مع الجيش الفاتح ثلاثة من نخبة علماء الأزهر يمثلون المذاهب الدينية وهم القاضي محمد الاسيوطي الحنفى والسيد أحمد البقلي الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المغربى المالكى وأوصاهم أن يحتوا أهل البلاد على الاستسلام والطاعة دون حرب بحجة أنهم مسلمون وإن الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب دينى وقد سهل هؤلاء له مهمته لما عرف عن أهل السودان من نزعة دينية مضافا الى حالة التفكك القبلى الذى كانت تعانيه البلاد وأصبح السودان أو كما كان يعرف بسنار خاضعا لمحمد علي وعرف ذلك العهد الذى امتد من عام ١٨٢١ الى ١٨٨٥ م بالحكم التركى .

● اغتيال اسماعيل باشا (١)

بعد أن تم لاسماعيل باشا بن محمد علي باشا فتح السودان قفل راجعا الى مصر وفي طريقه اليها وعند مدينة شندى « ترك الباشا خيالاته في مكان يبعد نحو عشرين ميلا جنوب شندى وأسرع مع نفر من مماليكه الخواص وطبيبه وخازن داره الى شندى وما ان دخلها حتى استدعى الملكين نمر والمساعد منكى قبيلة الجعليين وطلب منهما أن يحضروا من النقبود والماشية والجمال ما يقدر بنحو عشرين ألف جنيه حسب بعض الروايات أو على وجه العموم مبلغا تقصر مواردهم عن أدائه .

كان اسماعيل يرهب والده ويخافه وقد عرف من الخطابات التي بعث بها اليه ان ما وصل مصر لم يكن بالشئ المنتظر من بلاد عرفت بخيراتها الوفيرة فهو يريد أن يقدم لوالده هدايا قيمة من اقليمه الذي فتحه وان ينال الرضاء والتقدير وهو لم يسر من الملكين نمر والمساعد منذ ان قابلهما لأول مرة ولم يرض الا بتسليم الملك نمر نفسه حسين بعث هذا بابنه لمرافقته وجيشه الغازى في طريقه لستار ثم انه لم ينعم عليهما بسيف علامة الحلف والمعاونة ولم يانس لهما حين غادر شندى جنوبا بل أخذهما في ركابه تحت المراقبة وأوكل بحراستهما الملك شاويش ملك الشايقية وخيالاته .

(١) د. على شبيبكة - السودان في قرن - كذلك راجع عبد الرحيم النداء في

دفع الاثراء ص ١٠٤ .

دهش نمر لهذه المطالب وأبدى اعتراضه في لغة وقوة لم يرض عنها الباشا وما كان لنمر أن يخاطب بغير هذه اللغة لأنه نشأ على أن يأمر وتعود الخضوع والطاعة مع التقدير من شعبه وما كان للملك وملك الجميلين خاصة أن يراوغ في كلامه أو أن يتحدث بلغة الدبلوماسية وكانت لحظة حاسمة ، هذا اسماعيل يبلغ سبعة وعشرين عاما في عتفوان شبابه وابن عزيز مصر وفاتح مملكة سنار والقاضي على حكمها وهذا نمر عامل أولاد جعل أعز القبائل في السودان والمنحدرة من سلالة العباس عم النبي (صلعم) ولا مجال للتحقيق في صحة نسبتهم أو شعورهم بالتسامي والتفوق لأنهم نشأوا على هذه العقيدة ويستجيبون للمؤثرات ويتفاعلون مع الحوادث على هذه الأفكار والآراء وإذا اضطرت الاقدار - القاسية نمر لأن يجلس أمام الباشا في ذل وانكسار فإن لهجة الأمر التي كان اسماعيل يخاطبه بها وثقل المطالب زادت نار الثورة المخبوءة بين الجوانح تأججا واشتعالا ومارد الباشا على اعتراض نمر بكلمة قد تحتل مهما كان وقعها ولكنه صفع الملك على وجهه بغليونه الطويل .

طبيعي لشل نمر وهو كما وصفناه عزة وقبيلة ان يرد الاسساءة التي لحقته في الحال وفعل كما روى قد هم بسحب سيفه غير أن المساعده قد غمزه بيده في رواية وتحدث معه بلغة البشاريين في رواية أخرى بأن يرجي الانتقام لفرصة أخرى ولو عرف اسماعيل طباع الشعب الذي أخضعه لم يرتكب هذه الغلظة ولكان مد في عمره أياما أخرى وانقلد البلاد مما أعقبه مقتل من خراب ودمار ولكن هكذا أرادت مشيئة الخالق .

دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة بأن تغيرت سحنة نمر وأظهر القبول وتسليم المطلوب غدا وجهزت الدلوكة (الطبل) لتضرب احتفاء بالباشا وأسكر القوم حتى ناموا وأثناء السرور والانشراح وضع القصب الجاف حول مقام الباشا وأشعلت النار في بهيم الليل ووقف الجمليون بسيوفهم يقضون على من يخترق النيران ويخرج الى الفضاء ويقال ان المماليك أظهروا اخلاصا لسيدهم بأن ترامسوا عليه فمات بالاختناق لا بالاحتراق في ليلة ١٧ صفر ١٢٣٩ هـ (أكتوبر ١٨٢٢ م) هكذا تروى القصة بتفاصيلها وقد تختلف في بعض أجزائها من رواة آخرين ولكنها في جوهرها تقول بأن الأسباب هي مطالب باهظة مصحوبة باهانة بالغة وان الرد كان اغتيا لا دبر وأحكم تدبيره والوثائق الرسمية لا تنير الطريق في هذه المسألة فهي تتركنا واسماعيل قد غادر ود مدني الى الشمال في طريق عودته لمصر .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل اسماعيل باشا وتحركت البلاد في ثورة كانت تحتبس في الصدور زهاء عامين من الزمان فقد دخل اسماعيل باشا السودان فاتحا له باسم خليفة المسلمين ولم يجد مقاومة تذكر بل سارت حملة الفتح كما وصفها مؤرخ سوداني كسير السائح لاكسبير الفاتح ولكن في مدى العامين ظهر الحكم على حقيقته وغلظته وكثر عن ثابه .

ولم تحتل حاميات الحكم الجديد الهجوم عليها من قبل الثوار في كررى والحلفاية والخرطوم والعليفون والكاملين وأخطرت المحروسة (مصر) .

وكان محمد خسرو الدرملي والمعروف بالدفتردار في كردفان بعد ان أخضعه للحكم الجديد وهو صهر محمد علي باشا زوج ابنته بأزلى هاشم وتولى قيادة الجيش الفاتح بعد مقتل اسماعيل باشا وطلب منه أن يقمع الثورة الناشئة آنذاك فهب من حينه متوجها الى الأبيض يقتسل ويسفك ويحرق القرى واحتمت القبائل بالجزر على النيل وتوجه شمالا فقتل أهلها ولم تسلم منه حتى بيوت الله فخر بها وحرق من احتما بها وهزم الملكين نمر والمساعد وتعقبهما حتى دخلا حدود الحبشة . وقتل في المتمة (١) من الأسرى ثلاثة آلاف اذ حاول واحد منهم تسديد ضربة له بالحربة ، أحرق المتمة وشندى وكبوشية والدامر في الشمال واستمر شهورا يجوب البلاد وشياطين الدمار والخراب تسير في ركابه ناشرا الدعر والرعب في نفوس المواطنين حيث فتك وقتل سكان الحلفاية وتوتى والعليفون .

لقد جمع الأسرى عشرات الآلاف رجالا ونساء في زرائب وجعل يدخل لهم الماء بالجداول وفيهم أبناء الملوك وذراى الائمة الاعلام فمنهم من مات في الحبشة ومنهم من أرسل الى مصر بما فيهم عدد من نساء الملك نمر وبناته وخالاته وعماته ليباعوا هناك في سوق الرقيق .

ولم ينج من سيف الدفتردار أحد حتى العلماء فقد قتل في المتمة الشيخ الربيع السنهورى العالم وأكثر من مائة طالب أمامه كانوا يدرسون عليه الفقه المالكي وقتل العالم قمر الدين حفيد الشيخ مجذوب وحرق

(١) راجع كاتب الثورة - مخطوطة - تحقيق الشاطر بصيل من ٩٢ - ٩٧ وصرار صالح صرار وتاريخ السودان الحديث .

مسجد الدامر كذلك قتل بالمدفع الشيخ ارباب الكامل خليفة ارباب العقائد مؤسس مدينة الخرطوم كما قتل الشيخ صالح ولد بانقا العالم الذي ورد ذكره آنفا وقبض على العلامة الفقيه ابراهيم عيسى مؤسس المسجد المعروف وضرب ضربا مبرحا .

لقد قدر مجموع من قتلوا في حملة الدفتردار الانتقامية بثلاثين ألفا وانتهت بذلك صفحة دموية لم تشهد السودان مثلها تركت جرحا غائرا في قلوب المواطنين سنوات عديدة وفر منهم من فر الى حدود البلاد الشرقية وتركوا المدن والقرى خالية خاوية ويروى أن من ضمن الأسباب التي دفعت محمد علي باشا الى زيارة السودان عام ١٨٣٩ م محاولته لرأب ما صدعه (١) الدفتردار ولم يدع سبيلا لارضاء السودانيين الا سلكه .

(١) ابراهيم فوزى - السودان بين يدي غردون وكفتنر .

● الطلاب السودانيون يقبلون على الأزهر

لقد توفي القاضي محمد الأسبوطي الحنفي في مدينة ود مدني بعد عام من فتح البلاد أما الشيخان أحمد البقلي وأحمد السلاوي المالكي فقد رجعا الى مصر .

وبذلك شهد السودان عهدا ارتبط بمصر ارتباطا وثيقا في كل المجالات بعد أن قامت لأول مرة في البلاد حكومة مركزية وانتظمت فيها كل أسباب السلام وازداد اقبال السودانيين على مصر للاستزادة من العلم في رحاب الأزهر وهاجر الكثيرون بما لا يتسع المجال لذكرهم هنا وأقام بعضهم بمصر واستقر بها وعاد الآخرون الى بلادهم للعمل في نشر العلم وتبصير الناس بشئون دينهم .

ويروى أن سودانيا اسمه محمد علي وداعة قد حضر الى مصر طلبا للعلم في الأزهر ووجد هناك ستة من الطلاب السودانيين وبعد خمس سنوات من مواصلة دراسته في الأزهر تقدم نيابة عنهم لوالى مصر بإنشاء (١) رواق خاص بهم وقد وافق محمد علي باشا على طلبه وأنشأ الرواق عام ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م وقد حمل اسم رواق السنارية نسبة الى سنار الاسم الذى يطلق على السودان وكان الشيخ عجيب أحد ولاة دولة سنار (١٥٠٥ - ١٨٢١ م) قد أنشأ رواقا لهم توقف عنه المدد منذ آخر دولة سنار .

(١) عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان - ج ٢ ص ١٦ .

كان الطلاب السودانيون من أبني محمد (المناصير) فجنوبا وشرقا هم الذين يلتحقون بالرواق ثم انشئ فيما بعد رواقان - رواق دارفور وكانت دارفور سلطنة منفصلة عن سنار ورواق (١) البرابرة وهو خاص بالطلاب التوبيين السودانيين وقد تغير اسمه الى رواق شمال السودان بناء على رغبة ابيه السيد عبد الرحمن المهدي للشيخ مصطفى المراغي شيخ الازهر عند زيارته له في الازهر في مطلع الثلاثينيات .

اهتم محمد علي باشا وحفيده اسماعيل باشا بالتعليم الديني في السودان فخصصا المنح والاعانات المالية للعلماء والفقهاء كما شيدت وعمرت في عهديهما كثير من المساجد والخلاوى والزوايا التي كانت بحق مراكز للاشعاع العلمي والديني . في طول البلاد وعرضها كما شجعا التحاق السودانيين بالازهر وقد كان هناك من حكام السودان في ذلك العهد من أبدى اهتماما بالغا بايقاد السودانيين للازهر لمواصلة تعليمهم مثل الحكمدار جعفر مظهر (١٨٦٦ م - ١٨٧١ م) المصري الجنسية والذي كان ذا ثقافة واسعة وعلم نافع وقد وصفه الرحالة الفرنسي ف . لافارغو بأنه « رجل كتاب ومسجد » (٢) وكان يقرب اليه العلماء السودانيون مما جعلهم يلتفون حوله وكانت تربطه صداقة بالشيخ الأمين الضريير مدير علماء السودان .

كتب الحكمدار جعفر مظهر لمصر يطلب الموافقة على ارسال بعثات من الطلاب السودانيين حفظه القرآن ومن حصلوا على بعض مبادئ النحو والفقه بغية الانتساب للازهر لفترة ثلاث سنوات يعودون بعدها لأهلهم رسل ثقافة دينية سليمة ودعاة دين قويين ولعل مما حدا به لذلك خشيته من اتساع نفوذ رجال التصوف الذين انتشروا في ربوع البلاد بعد أن سمت مكانتهم وأصبح لهم أثر كبير وسط المواطنين .

وقد صاحب معه طالبين سودانيين من كسلا (٣) عندما غادر البلاد ليواصل تعليمهما في الازهر وقام بتقديمهما بنفسه للشيخ مصطفى العروسي شيخ الازهر حينذاك وأوصاه بهما خيرا .

(١) هذه الرواية قصها عن الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان الاسبق .

(٢) د . شوقي الجمل - تاريخ سودان وادي النيل ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) د . عبد العزيز عبد المجيد - العربية في السودان ج ٢ ص ٦١ .

وخلاصة القول شهد ذلك العهد هجرات متلاحقة ومتصلة للأزهر
وتوسعا ملحوظا في التعليم الديني وانتظام العلماء السودانيين في سلك
التدريس والقضاء الشرعي .

ثم ادخل التعليم المدني الحديث وعرفت البلاد لأول مرة مدارس
في بعض مدنها على غرار ما كان يجري في مصر وكانت تدرس فيها اللغة
التركية وبعضها الفرنسية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ كما كان
يدرس فيها علماء من الأزهر علوم اللغة والدين كشرح الكفراوى وشرح
الشيخ خالد أو شرح الأزهري وشرح ابن عقيل على الفية ابن مالك
ويمكننا من ذلك أن ندرك المستوى العلمي الرفيع الذي بلغته تلك
المدارس .

● متخرجو الأزهر السودانيون

في العهد التركي

(١٨٢١ - ١٨٨٥ م)

ومن الرعيل الأول من السودانيين الذين تخرجوا في الأزهر وعادوا لينشروا العلم في بلادهم أسرة عيسى بشارة الانصارى : وعيسى بشارة هذا هو أحد أئمة الدين والعلماء العاملين ولد في المدينة المنورة في أوائل القرن العاشر الهجرى وفيها حفظ القرآن ثم سافر الى مصر في طلب العلم وتلقاه في الأزهر على شيوخ الاسلام - الشيخ زكريا (١) الانصارى الشافعى الذى وصفه ابن اياس في بدائع بأنه « الامام العالم العامل شيخ الاسلام والمسلمين مفتى الانام في العالمين بقية السلف وعمدة الخلف عالم الوجود على الاطلاق ومن ذكره شاع في الافاق » المتوفى عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠ م وكذلك على الشيخين محمسة البنوفرى المالكى وبرهان الدين بن أبى شريف قدم الشيخ عيسى السبودان وتزوج بنت ملك الجموعية وانشأ مسجدا في قرية كترانج التى تقع في الضفة اليمنى للنيل الازرق على بعد ٣٦ ميلا جنوب الخرطوم وقد اقبل الناس على الشيخ عيسى وأبنائه وأحفاده يثلقون عليهم العلم وكان الشيخ عيسى بارعا في المذهبين المالكى والشافعى ونايعة في العلوم المعقولة والمنقولة .

يعتبر مسجد كترانج أول معهد علمي في السودان الاوسط ومازال يؤدي رسالته الى اليوم أى ما يقرب من خمسة قرون وقسده الحق به مسجداً آخران بعد أن ضاقت مساحته بوفود الطلاب والدارسين والمهاجرين .

(١) عز الدين الأمين - قرية كترانج وأثرها العلمى على السودان .

أقبل بعض من أفراد أسرة الشيخ عيسى على الدراسة في الأزهر وتلقوا العلم على أيدي نفر من أساتذته النابهين حيث منحوهم إجازات علمية تشهد بعلو كعبهم في العلوم الشرعية والفتاوى على المذاهب الثلاثة - المالكي والشافعي والحنفي .

لقد كان فضل هذه الأسرة على السودان كبيرا فقد وهبت البلاد أكثر من أربعين عالما وفقيها عملوا في نشر التعليم في مختلف العهود إبان سلطنة سنار وإثناء الحكم التركي وفي فترة الحسكم البريطاني على السودان وبالطبع فقد تفاوتت منازل هؤلاء العلماء من حيث حصيلتهم الدينية ومن حيث عظائم ولكنهم أسهموا جميعا في بناء ذلك الصرح الديني العتيق الذي كان أول مركز إسلامي يشيد في السودان الأوسط .

من علماء هذه الأسرة البارزين الشيخ أحمد بن عيسى المتوفى في سنار عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م وكان قد حفظ القرآن في كترانج ثم سافر إلى مصر ودرس على شيوخ الإسلام أحمد الدردير ومحمد الهمير الشريف مرتضى الزبيدي وغيرهم ثم عاد واشتغل بالتدريس في مسجد جده عيسى بن بشارة ويعتبر وبحق أعظم علماء السودان في عصره وأكثرهم حذقا للعلم وكان لا يكتفى بالتدريس في مسجد كترانج بل ينتقل إلى سنار قسبة البلاد آنذاك حيث كانت حلقة درسه يؤمها طلاب العلم من كل ربوع السودان ومن الاقطار المجاورة .

وعند وفاة الشيخ أحمد ود عيسى رثاه الشيخ أحمد السلاوي العالم المالكي والذي قدم السودان مع الجيش التركي الفاتح وقصد عين قاضيا لقضاة السودان بقصيدة طويلة وتحدث عنه بقوله : -

« وبالجسلة فما وجدت في بلاد السودان عالما أعلم ولا أروع منه ومن تلامذته ولا وجدت عندهم علما انظف ولا اصفى من علمه وتلامذته عندي مقدمون على سائر علماء السودان حتى وليتهم جميعا نياية القضاء والافتاء والتدريس في اماكنهم في الجزيرة » وكذلك نعاه الشيخ أحمد كاتب الشونه في مخطوطته تاريخ (١) مدينة سنار بقوله : -

« توفي في تلك السنة شيخ الاسلام العالم العامل مرشد الطالبين ومحبي شريعة سيد المرسلين من افنى عمره في طاعة الله واصلاح المسلمين

(١) أحمد بن الحاج كاتب الشونة - مخطوطة - تحقيق الشاطر بصيلي ص ١٠٢ .

الفقيه أحمد بن عيسى وذلك في آخر السنة في شهر الحجة الحرام رحمه الله آمين وله مناقب كثيرة وفضائل شهيرة ويكفي منها بذله للعلم وصبره على الأذى وذلك أجل مناقب الكرام .»

نلقى العلم على الشيخ أحمد عيسى نخبة من خيرة العلماء والفقهاء نذكر منهم ابنه الشيخ إبراهيم والشيخ محمد بن بدر المعروف بالعبيد منشيء مدينة أم ضوا بان العلمية والتي تخرج فيها ومازال آلاف من طلاب العلم . وظلت نار القرآن (١) موقدة فيها لم ينطفئ أبدا منذ انشاء المدينة العلمية أي منذ أكثر من مائة وستين عاما ومنهم أيضا الشيخ بدوي أبو صفية البديري المدفون في مدينة الأبيض عاصمة إقليم كردفان وهو صاحب الأثر المحمود في نشر الاسلام في جبال النوبة في غرب السودان وكان يأتي بالنوبة من جبالهم ويعلمهم القرآن والحل الأدبي والضروري من الفقه والتوحيد ثم يعيدهم الى مناطقهم لينشروا الدين بين قبائلهم ومن العلماء الذين درسوا عليه العلامة الأديب والمؤرخ إبراهيم عبد الدافع أول من تقلد منصب الافتاء في العهد التركي ومنهم الفقيه والكاتب حسين ود عماري من دارفور ومنهم الفقيه محمد الجليل نسبة الى موطنه جليل أم علي في شمال السودان والأديب الفقيه الشيخ فرح ود تكتوك في سنار .

ولكي نلقى مزيدا من الضوء على أثر أسرة الشيخ عيسى الانصاري نذكر كبار من تخرجوا في مساجدها من العلماء والفقهاء في مختلف الاوقات .

كان الشيخ إبراهيم بن أحمد بن عيسى قد حل محل أبيه بعد وفاته بل وقبل ذلك عندما رحل الشيخ أحمد الى سنار ليعلم الناس هناك . لقد بنى الشيخ إبراهيم المسجد المعروف الى اليوم « مسجد ود عيسى » بعد ان تكاثر عدد الطلاب في كترانج وكذلك بنى الشيخ محمد أحمد البدوي مسجدا ثالثا في قرية السعدية بالقرب من كترانج ومسجد هنا يعني مركزا اسلاميا أو مدينة بعوث بلغة اليوم بكل ما تحمل الكلمة من معنى وكان محمد علي باشا عند زيارته للسودان عام ١٨٣٨ قد أمر بتجديد بناء المسجد بالطوب المحروق الاحمر وأصبحت الدولة تقسوم بالصرف عليه .

(١) المقصود هنا ان الطلاب يدرسون في الليل في العراء على ضوء نار يوقدونها من حطب يجمعونه بأنفسهم وهذا تقليد تسيير عليه خلاوى القرآن منذ عدة قرون والى يومنا هذا .

وَمِنْ دَرَسُوا فِي مَسَاجِدِ كُنَرَانِجِ عَلَى أَسْرَةِ عَيْسَى وَدَ بِشَارَةِ الْإِتْصَارِي
الْإِمَامِ مُحَمَّدِ أَحْمَدِ الْمَهْدِيِّ قَائِدِ الثَّوْرَةِ الْمَهْدِيَّةِ وَمُحَرَّرِ السُّودَانِ فَقَدْ تَلَقَّى
عَنْهُمْ بَعْضَ عُلُومِ اللُّغَةِ وَالدِّينِ كَكِتَابِي « قَطْرُ النَّدَى وَبَلِّ الصَّنَدِي وَشُدُورُ
الذَّهَبِ فِي مَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ » لِلْعَلَامَةِ النَّحْوِيِّ الْمَصْرِيِّ ابْنِ هَشَامٍ «
(١٣٠٨ - ١٣٦٠ م) الَّذِي كَانَ يَقَارَنُ بِسَيِّبِيَّةٍ وَفِي الدِّينِ رِسَالَةَ أَبِي
زَيْدِ الْقَيَّرَوَانِيِّ وَجَوْهَرَةَ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَهَا ارْتَحَسَلَ الْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ لِيُوَالِي
دِرَاسَتَهُ عَلَى الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ الْخَيْرِ فِي بَرَبَرٍ وَكَانَ الْإِمَامُ (١) الْمَهْدِيُّ نَفْسَهُ
يُنَوِّي السَّفَرَ لِمَصْرِ لِلدِّرَاسَةِ فِي الْأَزْهَرِ .

لَقَدْ تَخَرَّجَ فِي الْأَزْهَرِ أَيْضًا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ عُلَمَاءٌ نَذَرُ مِنْهُمْ :

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْإِمِينُ الْمَهْدِيُّ :

وَهُوَ عَمِيدُ أَسْرَةِ الْمَهْدِيِّ الْمَعْرُوفَةِ فِي السُّودَانِ وَمُؤَسِّسُ الطَّرِيقَةِ
الْمَهْدِيَّةِ وَاصِلُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْإِمِينِ دِرَاسَتَهُ فِي الْأَزْهَرِ حَيْثُ قَرَأَ الْقُرْآنَ
بِالتَّجْوِيدِ وَخَفِظَ الشَّاطِطِيَّةَ وَاتَّقَنَ فَهْمَهَا كَمَا قَرَأَ كِتَابَ غَيْثِ النَّفْسِ فِي
الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ ثُمَّ عَادَ وَفَتَحَ مَسْجِدًا بِقَرْيَةِ نَوَارِهِ عَلَى نَهْرِ الرَّهْدِ أَحْمَدَ
رَوَافِدَ النَّيْلِ الْأَزْرَقِ فَأَمَّهُ الطَّلَابُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ يَحْفَظُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ
وَيَقْرَأُونَ عِلْمَ التَّجْوِيدِ وَالْقِرَاءَاتِ بِالْكِتَابَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَتَوَفَّى فِي الرَّهْدِ
عَامَ ١٨٨٣ م .

الشَّيْخُ الْبَشِيرُ وَدُ نَعْمَةٌ :

وَقَدْ تَخَرَّجَ فِي الْأَزْهَرِ وَدَرَسَ أَيْضًا عَلَى جَمَالِ الدِّينِ الْإِفْغَانِيِّ وَكَانَ
زَمِيلًا لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ وَكَانَ نَابِغًا فِي الْفَلَسَفَةِ وَعَادَ لِيَدْرُسَ مَوَاطِنِيهِ
فِي مَدِينَةِ رِفَاعَةِ عَلَى النَّيْلِ الْأَزْرَقِ غَيْرَ أَنَّ مَدْرَسَتَهُ أَغْلَقَتْ كَغَيْرِهَا مِنْ
الْمَدَارِسِ فِي عَهْدِ الثَّوْرَةِ الْمَهْدِيَّةِ .

الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْأَزْهَرِيُّ :

وَهُوَ ابْنُ الشَّيْخِ إِسْمَاعِيلِ الْوَلِيِّ الْكُرْدِفَانِيِّ وَقَدْ تَلَقَّى الشَّيْخُ أَحْمَدُ
عِلْمَهُ فِي الْأَزْهَرِ حِوَالِي عَامِ ١٨٣٠/٤٠ م وَأَصْبَحَ مَدْرَسًا فِيهِ ثُمَّ عَادَ إِلَى
الْأَبْيَضِ عَاصِمَةِ كُرْدِفَانٍ وَبَنَى فِيهَا جَامِعًا وَمَنَازِلَ لِأَقَامَةِ الطُّسْلَابِ الدِّينِ

(١) جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - اَعْلَانُ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ أَحْمَدَ مِنْ ٤ .

وفدوا من كل البقاع للدراسة بمليسه وكانوا يتلقون في تلك المنشآت العلمية القرآن واللغة والفقه والتوحيد وغيرها وعمل قاضيا في غرب السودان وقد قتله انصار المهدي في أحد المعارك عام ١٨٨٢ م وعسرف بالازهرى وقد سار هذا اللقب على أسرته من بعده ومنهم حفيده اسماعيل الازهرى أحد قادة الحركة الوطنية وأول رئيس وزراء في السودان *

وبجانب هؤلاء العلماء السودانيين الذين تخرجوا في الازهر في العهد التركى (١٨٢١ - ١٨٨٥ م) هناك علماء ازهريون ادركوا الثورة المهديّة وانخرطوا في صفوفها وشغلوا مناصب فيها سيبرد ذكرهم فيما بعد *

● مدرسة الخرطوم الابتدائية

أولى تلك المدارس وأهمها على الإطلاق مدرسة الخرطوم التي فتحت في عهد الخديوي عباس ويجدر بنا أن نتحدث عنها ببعض الاسهاب . . اختيار لتلك المدرسة العلامة المصري الأزهرى رفاعة رافع الطهطاوى وهو من اعلام النهضة المصرية ان لم يكن شيخهم وكان قد عاد من أول بعثة بعثها محمد على باشا الى فرنسا وهو الذى أسس مدرسة الألسن فى مصر والتي اضطلعت بترجمة كثير من الكتب الافرنجية وقد بلغ مجموع ما ترجمه رفاعة وطلابه ألفى كتاب وكتيبات فى مختلف المواضيع ونستطيع ان نقول ان رفاعة رافع هو صاحب الفضل فى نقل الثقافة الغربية وتبسيطها وتعريفها فى اذهان المصريين اذ لم تكن معروفة لديهم من قبل وكان على حظ كبير من العلم والمعرفة وتأثر بفولتير وروسو وألف كتباً كثيرة أهمها تخليص الأبريز فى تلخيص باريز الذى يوضح انطباعاته فى فرنسا ويحوى آراء ومبادئ ديمقراطية لم يكن يرضى عنها الحاكم المستبد ويقال انه أرسل الى السودان منقيا بسبب ذلك ولا غرابة فعباس باشا الذى أغلق المدارس فى مصر وعطل دور العلم فيها لم يكن حريصا على فتحها فى السودان بطبيعة الحال .

عهد لرفاعة باختيار المعلمين ليفتح المدرسة (طبق الترتيبات الجارية بالمدارس المصرية ولا سيما الأصول الجارية بمدرستى المبتديسان والتجهيزية) اختار رفاعة أحد عشر معلما وطبيبا هم :

(١) القائم مقام محمد بيومي أفندي (١) :

وهو من تلامذة البعثة الأولى ولما عاد من فرنسا عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق وكان أستاذا ومرجعا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين وصار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة في عهد نظارة لامبير بك ثم انتقل من التدريس الى قلم الترجمة بديسوان المدارس اشترك مع رفاعة بك رافع في العمل واشتغل بترجمة الكتب في الفن الذي اتقنه وعين في عهد عباس باشا مدرسا للحساب في مدرسة الخرطوم الابتدائية وتوفي في الخرطوم عام ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م .

ومما يلي بعض الكتب التي ترجمها :

١ - ثمرة الاكتساب في علم الحساب عن الفرنسية طبع عام ١٢٥٦ هـ .

٢ - كتابي الجبر والمقابلة طبع عام ١٢٥٦ هـ .

٣ - ثمرة الاكتساب في علم الحساب جزأين في مجلد واحد طبع عام ١٢٦٣ هـ .

٤ - الهندسة الوصفية (مجلدان) طبع عام ١٢٦٣ هـ .

٥ - جامع الثمرات في حساب المثلثات ترجم بأمر مدير المدارس وهو يشمل حساب المثلثات المستقيمة والكروية طبع عام ١٢٦٤ هـ .

٦ - مثلثات مستوية وكروية - ترجم بالاشتراك مع أحمد طاويل .

٧ - ميكانيكية أي علم جر الأثقال ترجمته بالاشتراك مع أحمد طاويل .

(٢) الصانع أحمد طائل أو طاويل (١) :

تلقى العلم بمدراس مصر وألحق بالبعثة المصرية وعين إثر عودته من فرنسا بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدا لدروس الأستاذ محمد بيومي الى أن صار مدرسا للعلوم الميكانيكية واشترك مع بيومي

(١) جاك تاجر - حركة الترجمة في مصر خلال القرن التاسع عشر ص ٦٢ .

فى ترجمة مؤلفين وترجم كتابا اسمه (تركيب آلات) وقد أخذ منه أكثر من مهندس فى ذلك العهد :

- | | | |
|---|---|------------------------------------|
| يرجح أنهم
من تلاميذ رفاعة
فى مدرسة الألسن . | { | ٣ - الملازم أول على محمد أفندى (١) |
| | | ٤ - الملازم ثان على عثمان أفندى |
| | | ٥ - الملازم ثان ابراهيم محمد أفندى |
| | | ٦ - الملازم ثان محمد مرسى أفندى |
| | | ٧ - الملازم ثان أمير أفندى |
| كانوا عاملين بالأزهر
.. طيب .. | { | ٨ - الملازم ثانى الشيخ رجب |
| | | ٩ - الملازم ثانى الشيخ مكاوى |
| | | ١٠ - الملازم ثان سليمان السيوطى |

هؤلاء هم هيئة التدريس التى رافقت رفاعة للعمل فى مدرسة الخرطوم وهم يمثلون نخبة من الأساتذة الذين أسهموا بنصيب وافر فى تاريخ التعليم فى مصر آنذاك ويلاحظ أنهم كانوا يمنحون رتباً عسكرية وكذلك الطلاب كانوا يسبرون على النهج العسكرى غير أن المدرسة لم تفتح الا فى عام ١٨٥٣ م أى بعد ما يقرب من ثلاث سنوات من قدوم رفاعة ومعاونيه الى البلاد وقد ألحق أحد المؤرخين المصريين باللائمة على رفاعة بل اتهمه بالتراخي والبطء فى القيام بما كلف به طيلة هذه المدة وقد أغلقت المدرسة بعد عام من افتتاحها بسبب عدم اهتمام الخديوى سعيد الذى خلف عباساً أو من جراء تدمير أو شكاوى رفاعة .

وحقيقة لم يكن رفاعة متحمساً للعمل فى السودان إذ كان ظنه انه بعث اليه منقياً وكان يجار بالشكوى وينظم الشعر واصفاً سوء حاله فى السودان بقوله (٢) :

وما السودان قط مقام مثل ولا سلمى فيه ولا سعادى
وقسدا فارقت أطفالا صغارا بطهرا دون عسودى واعتيادى
أفكسر فيهم سرا وجورا ولا سهوى بطيب ولا رقادى

(١) عبد العزيز عبد المجيد - التربية فى السودان ج ٢ ص ٢٨ .
(٢) عبد العزيز عبد المجيد - التربية فى السودان ج ٢ نقلا عن متاعج الألباب .

مع انه هو نفسه القاتل على لسان مصر والسودان :

نحن غصنان ضمننا عاطف الوجد جميعها في الحب ضم النطاق
في جبين الزمان منك ومنى غمرة كوكبية الانفلاق

كانت سن القبول في المدرسة تتراوح بين السابعة والثانية عشرة وكان المأمول أن تطور وترقى على غرار مثيلاتها من المدارس في مصر غير أن أغلب طلابها كانوا من أبناء الاتراك والمصريين العاملين والمقيمين في السودان وذلك لعزوف السودانيين عن ارسال أبنائهم لهذا النوع من التعليم النظامي الحديث الذي لم يعهده من قبل وكانوا يفضلون عليه التعليم الديني . كان الطالب السسوداني آنذاك يلتحق بالحلوة لحفظ القرآن أساسا والعمليات الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة) .

وفي مدة بقائه بالخرطوم ترجم رفاعة من الفرنسية كتاب « مواقع الافلاك في اخبار تليماك » وهو كتاب لقس كان مربيا لحفيد لويس الرابع عشر استقاء من الميثولوجية اليونانية ليقرأه الأسير الشاب فتتمو فضائله ويقوم اعوجاجه وكذلك شرع في تأليف كتابه القيم « مباحج الالباب المصرية ومناهج الآداب العصرية » وقد سجل فيه رأيه عن السودانيين بقوله (١) ان لهم « قابلية للتمدن الحقيقي لدقة أذهانهم فان أكثرهم قبائل عربية لا سيما الجعليين والشايقية وغيرهم واشتغالهم بما آفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ولهم تأثير عظيم في حسن التعليم والتعلم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الفقير فيعيثه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين (أى الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة فكل واحد من الأهالي يخصه الواحد أو الاثنان فيقومون بشئونهم مدة التعليم والتعلم » .

ويروى أحد (٢) الكتاب السودانيين الذين درسوا في مدرسة الخرطوم عام ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م انه سمع من بعض فضلاء السودانيين وكذلك من علي باشا رفاعة بن رفاعة ووكيل نظارة المعارف آنذاك ومن عامر بك سعد وهو من أعظم المدرسين من معاصري رفاعة ان رفاعة شرع في

(١) رفاعة رافع الطهطاوى . مناهج الالباب . ص ٢٦٢ .

(٢) من مقال لسليمان كشه عن مدينة الخرطوم في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٦٤/٧/٢٨ .
ونشار اليه هنا هو المواطن محمود القبانى .

تخميس البردة للبوصيري التي مدح فيها النبي (صلعم) وعندما فرغ منها أقام حفلا كبيرا دعا له كبار السودانيين وعلماء حيث سهرت الخرطوم ليلة من أهبج لياليها وقبل أن يطلع الفجر رأى رفاعة النبي (صلعم) بين اليقظة والنوم مصافحا ومخاطبا له :

« قبلت هذا التخميس وأجزيت عليه بالعودة الى القاهرة وسيصلك الأمر بتاريخ هذا اليوم » وبعد أربعة أسابيع وصل البريد والأمر مؤرخا بتاريخ اليوم وقد قرأه الناس بعد أن سمعوا بحديث الرؤية صبيحة يوم الحفل .

عاد رفاعة الى مصر وتوفي فيها عام ١٨٧٣ م .

هذا وقد أصدر الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) أمرا الى مدير ديوان المدارس بتاريخ ١٩ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ (١٨٦٧ م) بأنه « بناء على التماس حكمدار السودان يكلف رفاعة بك بترجمة الباقي من كتابه ملطبرون (الجغرافى) ويعهد اليه أيضا أمر ترجمة كتاب الريان اسميك الانجليزى المرسل منه نسخة فرنسية والباحث فى شئون سكان وادى النيل من منبجه الى مصبه لترسل بعد طبعه خمسون نسخة عربية منه لتدريس تلاميذ المدارس السودانية وتوزيعها على الضباط والمواطنين الملكيين » .

ومهما يكن من أمر فقد حظى السودان بوجود ذلك العالم بين ظهرائه زهاء الأربع سنوات على رأس تلك المدرسة التى هى الأولى من نوعها اذ كانت تسير على النهج النظامى الحديث كما أفاد المواطنون من معاونيه اذ قرر رفاعة فى كتابه - « قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن مضى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك » .

وفى عام ١٨٦٣ فى عهد الخديوي اسماعيل أعيد فتح مدرسة الخرطوم كما فتحت مدارس أخرى فى عواصم المديرىات فى بربر ودقلا والأبيض وكسلا . ويقول أحد تلامذة مدرسة الخرطوم وهو الشيخ (١) محمود القباني الذى ولد عام ١٨٧٣ وقد التحق بها عام ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م :

(١) عبد العزيز عبد الجيد - التربية فى السودان ج ٣ ص ٢٦ .

« كان ناظر المدرسة آنذاك اليوزباشى الحسن طه أفندى خليل من مديرية البحيرة وهو من أسرة فتح الله بركات باشا وكان من بين مدرسيها العلامة أحمد محمد الجداوى الاسوانى متخرج الأزهر وكان يعمل قبل ذلك قاضيا على عموم دارفور فى غرب السودان وقد خلفه الشيخ حسين مجدى الدمياطى الازهسرى والشيخ محمد ابراهيم عبد الدافع بن ابراهيم عبد الدافع أول سودانى تولى منصب المفتى وكان مدرسا للحساب والشيخ على التهورجى مدرس الخط وهو من أصل مصرى مولود فى الخرطوم ومن تلاميذ رفاعية مثل محمد ابراهيم عبد الدافع ومدرس الفرنسية السيد أفندى نعيم الذى أصبح بعد ذلك السيد بك نعيم وهو اسكندري تخرج من مدارس باريس وكان صيدليا لعموم السودان وهناك مدرسون آخرون لم اقرأ عليهم » .

وكان يتبع هذه المدرسة خطوة من فصلين لتعليم القرآن وكان الاولاد داخلية وبها مدرس الفصل الأول الشيخ على طلبة المعروف فى السودان بأنه فقيه مصرى وكان له صوت جميل وفى الفصل الثانى الشيخ بكري الجرجاوى والشيخ محمد عبد القادر التريبي من نسل مصرى ومولود فى الخرطوم » .

كان فى المدرسة قسمان قسم برانى (خارجى) يدفع مصاريف وأنا من القسم البرانى وقسم داخلى عدده مائتان ونظامه عسكري ويصرف للتلامذة أكلا وملابس ومرتبات عسكرية وكانت أعمارهم تتفاوت من ١٢ الى أكثر من عشرين وكانوا يتعلمون فيها » .

وكان الداخلى والبرانى يتعلمون معا فى فصول واحدة ويتلقون نفس المواد الا الفرنسية فانها كانت اختيارية للقسم البرانى وكنت أنا ممن يتلقون اللغة الفرنسية وكانت بجانبى بنت المدرس وهى البنت الوحيدة التى كانت تحضر الدروس دروس والدها السيد نعيم وهذه البنت اسمها فاطمة ونقلت من الخرطوم قبل حصار المهدي للخرطوم وأتمت دروسها فى أوروبا وتزوجها المرحوم محمد بك مسعود المؤرخ » .

كان عدد التلاميذ البرانى أكثر من ٣٠٠ وكان معى فى درس الفرنسية تلميذ من اولاد البرانى هو محمود سامى بن أحمد فهمى الصيدلى الثانى مع السيد نعيم » .

وكان كل التلاميذ الداخلية ٢٠٠ والبرانى ٣٠٠ فى وقت الدرس

يجلسون على الأرض ويكونون أربعة فصول أما في درس الفرنسية .
فنجلس على تخت ومكاتب أمامنا .

كنا نتعلم الحساب واللغة العربية والفرنسية للبعض والتركية
وكانوا يعتنون جدا بالخط الفارسي (وكان يسقط في الامتحان من
يسقط في الخط) .

كانت مصاريق البراني في الشهر ريال مجيدي أي ١٦ قرشا .
وكان التلاميذ الداخلية يلبسون لبسا عسكريا أما البراني فكانوا
أحرارا يلبسون كما يشاءون .

كان في الخرطوم فقهاء يقرأون القرآن باللغة المصرية وتراهم بين
أسود ومشليخ وهم لم يجيئوا من مصر ولكنهم تعلموا على يد شيوخ
مصريين في الخرطوم وكان يوجد في الخرطوم شيخ للفقهاء كما في مصر
يعطي راتبا ويعلم الناس التجويد ومنهم الشيخ محمد السقا الذي قتل
في سقوط الخرطوم .

وكذلك يوجد نساء مقرئات للقرآن كما في مصر يعملن بنات
الأكابر في بيوتهن القرآن والدين والخط » .

● احتفال مدرسة الخرطوم في الوقائع المصرية

كانت مجلة الوقائع المصرية تنشر حفل امتحان المدرسة السنوى
واننى انقل هنا بعض ما جاء فى عدد رقم ١١٩٤ بتاريخ ٢٣ رمضان
١٢٩٨ هـ الموافق ١٨ أغسطس ١٨٨١ م عن حفل الامتحان عن تلك
السنة .

فى يوم الاثنين المبارك ٣١ شعبان المعظم سنة ١٢٩٨ هـ احتفل
فى هذه المدرسة لامتحان ثلاثيها كما جرت به العادة المألوفة فى كل
عام فكان هذا الاحتفال جميل الهيئة جليل المنظر حضره جمع غفير من
رؤساء الحكومة الكرام ووجوه العلماء الاعلام وعدد كثير من الذوات
الفخام وتحلى جيد هذا المحفل بواسطة هذا المقعد النضيد سعادة محمد
رعوف باشا حاكم دار السودان ولما أن تم الاحتفال على هذا الوجه
الفائق افتتح التلميذ الأول طه أفندى زكى الامتحان بتلاوة خطبة رائعة
وقصيدة فائقة وهى من انشاء حضرة الفاضل أحمد أفندى جـداوى
الاسوانى أول خوجات المدرسة ثم بعد أن فرغ من تلاوتها قام هو
والتلميذ الثانى حسن أفندى صبرى فابروا بديع تخیلات الحريرى الى
حيز الوجود وأرقيا صنيع مخترعات مقساماته الى مقام الشهود فبينما
ما فى المقامة الفقهية من عجائب وكشفا عن غوامض ما أحرزته فتواها من
الفرائب فكان أحدهما سائلا والثانى مجيبا وكلاهما موفق ومصيب وقد
ابتهج سرورا بذكائهما جميع الحاضرين وشهدوا لهما بأنهما من انجب
المشتغلين ثم سئلا فى علم العربية عن جملة أبيات من شواهدا وعن
كثير من قواعدا ثم فى اللغة الفرنسية والفنون الحسابية فاجابا فى

كل ذلك بما دل على انهما من البارعين وصدحت لهما الموسيقى بنفسات
الفرح والاعجاب ثم قام بعدهما بقية التلاميذ وسئلوا واحدا واحدا فيما
حصلوه من العلوم واللغات فكانت اجسابة الجميع بما تقر العين وتسر
القبض وتدل على ان مستقبل هذه المدرسة سيكون لي في نيا عظيم وكان الفراغ
من اختيار جميع الطلبة في الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء فقام كل
الحاضرين فرحين مسرورين بما شاهدوه من براعة هؤلاء التلامذة مثنين على
معلميهم وأساتذتهم وحضرة الناظر بالثناء الجميل على ما بذلوه من الهمة
والنشاط في التعليم داعين للجناب الخديوى المعظم ولرجال حكومته
الكرام بأن ينفع بعنايتهم الوطن وان يديم شمس وجودهم في آفاق البلاد
فيتحقق لابنائها الراحة والاسعاد وان يتمتع جنابه الكريم ببقاء انجاله
ما لاح بدر الكمال وفاح مسك الختام .

لقد أدت هذه المدارس النظامية خدمات (١) للادارة التركية فمدتها
بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهوضا في الثقافة والادب
في ربوع البلاد جنبا الى جنب مع خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية .

كما لم يتوقف اقبال العلماء الأزهريين الى السودان ولم ينل من عزمهم
على مواصلة اداء رسالتهم في مرفقى التدريس والقضاء . وقد ظلوا على
ذلك الحال الى نهاية الحكم التركي على البلاد عام ١٨٨٥ - فقد كانت نخبة
ممتازة نذكر منها على سبيل المثال الشيخ حسين المجدى والشيخ
شاكر المفتى والشيخ محمد موسى مفتى المحاكم الشرعية والشيخ محمد السقا
شيخ القراء وهؤلاء قتلوا جميعهم عندما فتح المهدي الخرطوم صباح
٢٦ يناير عام ١٨٨٥ م ونذكر أيضا من هؤلاء العلماء الشيخ أحمد محمد
الجداوى الأسواني الذى كان يعمل قاضيا في دارفور ثم نقل كبرا
لمدرسى مدرسة الخرطوم والشريف المحروقي الشاذلى وكانوا يدرسون
بالاضافة الى أعمالهم الرسمية الاخرى في جامع الخرطوم العتيق مع
أقرانهم العلماء السودانيين .

(١) د - مكي شبكة - السودان في مرون ص ١٢ .

● القضاء في العهد التركي

عكفت الإدارة الجديدة في السودان على تنظيم القضاء مع غيره من مرافق الدولة فأنشأت المحاكم الشرعية في المراكز والمدريات وعينت قاضيا سمي بقاضي عموم السودان ليختار القضاة الشرعيين ويكون المسئول الأول عن القضاء في البلاد وكان قاضي عموم السودان ومفتي مجلس الاستئناف وشيخ العلماء يعينون بأمر خديوى مصر أما غيرهم من القضاة يرشحهم قاضي عموم السودان ويعينهم حاكم دار البلاد *

كان أول من شغل منصب قاضي عموم السودان هو (١) الشيخ محمد الأسيوطى الذى كان أحد الأئمة الثلاثة الذين رافقوا حملة الفتح كما أشرنا الى ذلك سابقا وكان من علماء الحنفية المعروفين في مصر وتوفي في ود مدنى عام ١٨٢٣ *

ثم أسند هذا المنصب الى مسودانى هو الشيخ ادريس من أسرة اليعقوبات المعروفة في السودان وتوفي عام ١٨٢٦ م *

ثم تولى هذا المنصب الشيخ أحمد السلاوى المالكى الذى كان ثالث الثلاثة الفقهاء الذين رافقوا حملة الفتح وقد عاد من مصر عام ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٦ م وقد شدد الوالى محمد على باشا على حاكم دار السودان خورشيد باشا الا يقطع أمرا دون مشاورة الشيخ السلاوى *

(١) القاضي حسين سيد أحمد المفتى - تطور القضاء في السودان ص ٨٩ *

كانت بعض القضايا تحول في يادى الأمر الى ديوان الافتاء في مصر وكانت أحكام أولئك القضاة توضح ما كان للقضاء من قوة في ذلك العهد وفى نفس الوقت تثبت للعلماء السودانيين مقدرة في العلم والبحث يصح الاختيار بها (١) .

كان الشيخ أحمد السلاوى عالما وشاعرا ويوصف بأن له عارضة قوية في المسائل العلمية ويقال ان له تأليفا سماه المحاكمة حكم فيه بين المفتى والصبان في حاشيتهما على الاشمونى على الخلاصة وهذا طريق شائك لا يخوضه الا متبحر في العلم (٢) .

ثم تولى منصب قاضى عموم السودان الشيخ ابراهيم الهيثمى عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م وكان من كبار علماء المذهب المالكي في الازهر .

ثم خلفه الشيخ مصطفى السلاوى نجل الشيخ أحمد السلاوى المغربى وقد ولد في الخرطوم وكان شاعرا وأديبا ولكنه عزل من منصبه وأودع سجن طره في مصر وتوفى عام ١٨٨٧ م .

وكان آخر من اسند اليه منصب قاضى عموم السودان المواطن العلامة الشيخ محمد خوجلي حنيناك عام ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٨ م وهو من متخرجى الازهر وظل في هذا المنصب حتى نهاية الحكم التركى حيث قتل مع من قتل عندما فتح المهدي الخرطوم عام ١٨٨٥ م .

ومن أشهر قضاة المديريات آنذاك العلامة البندوى القرافى (٣) الذى عين قاضيا لمديرية دنقلا ويروى انه رفض ان يأخذ مرتبسا على منصبه واشترط الا يقيد نفسه باللوائح والمنشورات بل يقضى بكتاب الله وسنة رسوله وكذلك الشيخ عربى الهوارى قاضى مديرية كردفان وكان عالما وشاعرا والشيخ عبد القنى السلاوى وهو مغربى الاصل سودانى المولد وكان أيضا شاعرا مرموقا والشيخ أحمد الازهرى قاض على كردفان .

كان جميع قضاة المديريات من المواطنين السودانيين عدا مديريتى سنار فقد كان قاضيهما الشيخ مكى حسن الاصولى وبربر حيث جلس

(٢٠١) من مقال للقاضى يوسف ابراهيم النور - مجلة الفجر السودانية العدد الاول مارس ١٩٣٧ عن صحيفة من تاريخ السودان القديم القضاء .

(٣) حسين سيد احمد المفتى - تطور القضاء في السودان ص (١٠٩) .

للقضاء فيها الاستاذ الشيخ حسن الخطيب المصرى وهما بطبيعة الحال من متخرجى الازهر .

الافتاء :

كانت الصلة قائمة بين علماء مصر والسودان منذ عهد سلطنة سنار ودارفور كما أوردنا سابقا وكان علماء السودان يرفعون اليهم ويحاورونهم فى بعض الحوادث والقضايا التى تعرض عليهم وفى فترة الحكم التركى على السودان توثقت الصلة وخاصة مع الشيخ العلامة ابنى عبد الله الشيخ محمد بن الشيخ أحمد الملقب بعليش الذى تقلد منسيخة المالكية ووظيفة الافتاء فى مصر وكان لفتاوى الشيخ عليش (١) عظيم الأثر الدينى فى السودان فقد كان مرجع الشعب والحكومة فى الافتاء . لقد درس كثير من السودانيين على الشيخ عليش المتوفى عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م ومنهم شيخ علماء السودان محمد ولد البدوى .

كان أول من عين مفتيا للسودان آنذاك الشيخ محمد السليدى عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م وكان من علماء مصر العاملين وتوفى عام ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ وخلفه فى هذا المنصب الشيخ ابراهيم عبد الدافع الذى ورد ذكره آنفا والمتوفى عام ١٨٥٤ م .

تم جعلت الادارة التركية مفتيا لكل مديرية لانه (٢) اتضح لها عمليا صعوبة الاكتفاء بمفت عام لكل البلاد ومن هؤلاء نذكر الشيخ اسماعيل عبد القادر المفتى على كردفان والشيخ عبد الحى الطرابلسى على مديرية بربر والشيخ عمر حامد البديرى على دنقلا والاستاذ الشيخ زروق الحلتقى على مديرية الناكأ والاستاذ السيد أحمد الشنقيطى على محافظة سواكن وكلهم من متخرجى الازهر .

وكانت مسئولية مفتى المديرية افتاء أهل مديريته فى العبادات والمعاملات كما كان من اختصاصه النظر فى استئناف أحكام قضاء مديريته وكان مدير المديرية لا يقدم على عمل يتعلق بالاسلام والمسلمين الا اذا اتصل بمفتى مديريته وتحصل على فتوى منه .

(٢٠١) القاضى حسين سيد أحمد المفتى - تطور القضاء فى السودان ص (١٠٩) .

● علماء سودانيون نوابغ درسوا على متخرجي الأزهر

هذا وقد نبغ في العهد التركي (١٨٢١ - ١٨٨٥ م) في السودان عدد من العلماء الذين درسوا على متخرجي الأزهر نذكر منهم الشيخ الأمين الضرير العالم والأديب وعاهل الأسرة الدينية والاجتماعية المعروفة في السودان وهو ينحدر من قبيلة المحسن التي لها فضل لا ينكر في نشر العلم في البلاد .

تلقى الشيخ الأمين (١) الضرير تعليمه على الشيخ ابراهيم بن عيسى حفيد الشيخ عيسى بشارة الانصارى في كترانج وقد تنازل الشيخ ابراهيم للشيخ الأمين الضرير عن شهادته العلمية التي تلقاها من والده العالم الجليل الشيخ أحمد بن عيسى ومنحها له تقديرا لعلمه ونبوغه .

كان الشيخ الأمين الضرير بحق نابغة عصره وزمائه في بلاده ولقب بشيخ الاسلام ورئيس ومميز علماء السودان وكانت له مدارس في توتى ورفاعة والخرطوم وكان ينتقل اليها ويدرس في كل منها الفقه المالكي والتوحيد وتفسير القرآن والأحاديث النبوية والفقه المالكي في النحو وقد تتلمذ عليه كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ محمد عمر البنبا والشيخ يوسف ولد نعمة والفكي أحمد عوض الله وأحمد نور السرورابي والشيخ محمد ود الجريف وكلهم عرفوا فيما بعد علماء وفقهاء أدوا واجبا كبيرا في نشر الدين والعلم في مختلف بقاع السودان .

(١) ابراهيم عبد الرزاق - شيخ الاسلام الفكي الأمين الضرير

كان للشيخ الأمين مؤلفات في علم الفرائض والميراث وبحوث دينية أخرى أدبية وتاريخية نشر بعضها في مجلة الجوائب في مصر لصاحبها أحمد فارس الشدياق ومجلة الوقائع المصرية وروضة المدارس .

وعندما قام الامام محمد أحمد المهدي بالثورة ونادى بأنه المهدي المنتظر أصدر بعض من علماء السودان آنذاك رسائل تكذيب وبطلان في دعوة المهدي وطلبوا المواطنين بالا يتبعوه من بين أولئك العلماء كان الشيخ الأمين الضير وكانت رسالته بعنوان « هدى المستهدى الى بيان المهدي والمتهدى » ورد عليهم الامام المهدي بمنشور وسماههم بعلماء السوء وذكر أسماءهم ما عدا الشيخ الأمين اذ قال :

« ... فان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وقد يدخر للمتأخرين ما عسر على المتقدمين لا تغتروا بالخطب التي ألفها في ذمنا وتكذبنا علماء السوء كأحمد بن اسماعيل الولي وحسين مجدي والمفتي شاكر ومحمد ود حتيك وود الدليل وأمثالهم من وقع في عرضنا فهؤلاء ممن أدخل الله في قلوبهم النفاق بحب المال والجاه ... »

وعندما سقطت الخرطوم عاصمة الحكم التركي في السودان في ٢٦ يناير ١٨٨٥ بيد المهدي قتل العلماء الذين سماهم المهدي بعلماء السوء ما عدا الشيخ أحمد بن اسماعيل المعروف بأحمد الأزهرى الذى كان قد قتل في معركة ضد قوات المهدي في كردفان عام ١٨٨٣ .

توفي الشيخ الأمين الضير عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ ودفن في أم درمان وقد صلى عليه الامام المهدي .

كان الشيخ الأمير الضير شاعرا أيضا وقد فاز بالمرتبة الثانية في مسابقة نظمها مجلة الجوائب وعند اعلان النتيجة علق صاحبها أحمد فارس الشدياق على فوز الشيخ الضير بقوله :

« ... من الغريب أن يكون من أبناء حام من يتفوق على أبناء سام » ولما علم الشيخ الضير بهذا التعليق رد عليه ببحث مستفيض عن عروبة السودان . وللشيخ الضير قصيدة معروفة مدح فيها الخديوى حينما أسس الخديوى جمعية معارف مصرية للتعاون على نشر العلوم برعاية نجله - الأمير توفيق - وتزويد البلاد بالكتب القيمة وقد أشار الشيخ الضير في تلك القصيدة مثنيا على صديقه حكمدار السودان جعفر مظهر الذى كان يكرم العلماء والأدباء ووصف بأنه رجل كتاب ومسجد .

نشرت هذه القصيدة في مجلة الوقائع المصرية وقدم لها الشيخ
الأمين الضرير بقوله :

« لما اطلعت في نمرة ٣٠١ من الوقائع المصرية المتكلفة ينشر المنافع
العصرية على ما صورته من جميل الآثار التي حلت بها هذه الأعصار
وتجملت بها مصر بين الأمصار في ظل الحضرة العلية الخديوية الاسماعيلية
انه تأسست جمعية معارف مصرية للتعاون على نشر العلوم كمرغوب
الحضرة الداورية تحت حماية حضرة العزيز الأصيل والمشير الجليل
دولتو محمد توفيق باشا أكبر أنجال الخديوي الاكرم وولى عهد جنابه
أبقاهم الله رمزا للمعارف وعزا لكل عارف انشا لسان المقال قاضيا لسان
الحال وتاليا ما يقتضى تأكيداً لحب الحال مبتدئا بعد بث أحوال الزمان
يما لتلك الجمعية من الأوصاف الحسان مترقبا الى مدح ولاة ذلك الاحسان
لا سيما صاحب تلك الحماية والتفضيل بهاتيك الرعاية ثم ختمت ذلك
بتاريخ غاية في المرام به حسن الختام . . . »
وهذه بعض من أبياتها :

الود مآذبه والصمدى اخوان
والصادقون لدى الآداب اخوان
أشعارهم ذات اشعار بحالهم
فهى الشعار حفظوا بالوصل أو بانوا
خائن الاخلاء حتى قال واصفهم
ما للأمين بهذا الدهر خيلان
فقلت لاح لى والله ذو كسرم
وجعفر الفيض بالخيرات ملان
حسن التخلص فى اهل الزمان بمن
تضمنوا النفع كى يرتاد ظمسان
فيا اولي الجمع اهل العلم انكموا
فى نشر ما يرتقى به الله اخوان
ومصركم مصر والتوفيق حافظكم
والعتنى عارف والوقت احسان
الم تسوزع عليكم كلكم كتب
فى العلم نافعة بالطبع تزدان

الم يسكن جمعكم ارعى بصمتها
الم تيسر على التدرج اتمان
الم ييسر لكم فيها تنساوبكم
اذ ليس يمتنع لها رام انسان
فحاصل القول ان العلم قد سهلت
اسبابه اذ بدت للتفكير اعوان

والطريف ان مجلة الوقائع المصرية علقت في عددها ٣٢٠ المؤرخ
الخميس جماد الأول ١٢٨٦ بقولها :

« كثيرا ما نشرت مقالات واردة من السودان بعضها لحضرة حكمدارها
المجيد وبعضها لحضرة نجله النجيب السعيد وبعضها لمن يستبدل بكلامهم
على تمدن تلك الجهات وتنوير قلوبهم بالمعارف وتحليلهم بجميل الصفات
في هذا العصر المبارك والعهد الذي لا يشارك من بعد ان كان لا ينصرف
عند الاطلاق لفظ السودان الا لما حوى أمة متبربرة كانها ليست من نوع
الانسان بعدد عن العلماء لما بين الارض والسما وعلم اشتغالهم الا بما
تسعه عليه الوجدانيات كالجوع والعطش واشباه ذلك من الضروريات على
خلاف ما هم عليه الآن من الاجتهاد والتشبيث بالعرفان الدالة عليه مقالاتهم
الواردة المشتملة على كل شارة ، ومن ذلك ما بعث به هذه المرة حضرة
ذلك الحكمدار الذي هو في وجه بلادهم غرة وتسمية الى حضرة عالمهم الشير
الشيخ الامين الضيرير يريد به زيادة بيان فضله وبراعته من أمثاله ونباه
والدرجة التي وصلت اليها هاتيك البلاد والفاق علمائهم بعلماء المدن في
الاستعداد وفتحهم بطبع الكتب واستسحال ما به يحصلونها من المصارف
وشكرهم بكل لسان جميل جممية المعارف واجتهادهم في العلوم الادبية
ومحاولتها كغيرها من العلوم العربية بالانشاء والتأليف والاملاء
والتصنيف حتى حصلوا حسب الطاقة القدر الوافر وخرجوا من ورطة
الطبع المتنافر ولعمري ان كل ذي لب يستكثر من أولئك ذلك ونشره
للقوف على حقيقة الدرجة الى هناك والتشويق الى الزيادة من الافادة
والاستفادة ولقد تردد علينا اناس منهم مشغولون بالعلم بالازهر المعمر
هم في غاية التهذيب والنجابة والاستقامة في كل الامور تحسبهم اولا
انهم كلهم خيلان وخطط الانصار لا السودان بالجملة فالواجب نشر
مآثرهم بلغت ما بلغت شكرا على تناسي بربريتهم التي لفت في هذه

الايوات الحالية بالمهمة الخديوية العالية وهذا لفظ ما ورد للشيخ الامين.
الموعود به قيل في التبيين .

وقد لاحظ احد (١) المؤرخين السودانيين ان تعليق مجلة الوقائع
على مقدمة وقصيدة الشيخ الامين الضرير كان ركيكا مما يوضح الفرق
الهائل بينه وبين اسلوب القصيدة ومقدمتها .

الشيخ ابراهيم عبد الدافع :

وهو احد علماء السودان النابيين - كان فقيها وشاعرا ومؤرخا ولى
القضاء وعين مفتيا للسودان فى حوالى (١٨٤٠ - ١٨٥٤ م) ويقال انه
اشترك فى تنقيح مخطوطة الشيخ احمد كاتب الشونة فى تاريخ السودان
مع الشيخ الامين الضرير والزبير عبد القادر الزين المعروف بالزبير ود ضوه
وتعتبر تلك المخطوطة مصدرا رئيسيا فى تاريخ السودان فى عهد سلطنة
سنار والفتح التركى للبلاد وقد طبعت اليوم وحققها العالمان الدكتور
مكى شببكا السودانى والشاطر البصيلى المصرى .

ومن شمس الشيخ ابراهيم عبد الدافع قصيدته فى رثاء العالم محمد
نور ضيف الله صاحب كتاب الطبقات التى جاء فيها .

دع الدين تبسكى دهرها بتوجد
على قميص بهر كان بالعلم مزبده
هو الخير نجسل الخير ضعيف الهنا
لقد حاز فخر فى الانام وسوددا
هو العالم المشهور والنام والذى
يرشد الهادى الى سبيل الهدى
كريم طباع ثم سمع شمسائل
باسمائه القاضين فى ذلك اقتدى

كذلك قصيدته فى رثاء الشيخ احمد الطيب البشير قطب الطريقة
السمانية المتوفى عام ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٤ .

ومطلعها : -

(١) محمد عبد الرحيم - لغات اليراع ص ٨٠ .

عرج بركبك حادى الاظعان
واحطط رحالك مبتغى العرفان
وله قصيدة أخرى فى رثاء كبار العلماء ويبكى على سنار وعهدهما
حيث بدأها بقوله :

اليوم أصبح دكن الدين منهلما
بموت اخواننا فى الله والعلماء
ديسارنا بعسلما كانت معمرة
منهم غدت مسكن الطاعين والظلماء
كنا زمانا يجينا الركب من بعد
الى العلوم وللقسرآن والحكما
صرنا طعما بلا ملح يلد به
تعافه أعين الرائي ومن طعما
كائننا قط ما كان بيلدنسا
نقرر العلم جهسرا ليس منكنا
والدهر فى غفلة عنا ويجسدنا
على الذى عندنا الجيران والنصما
فمن الى العلم فى الأفاق ينشره
ومن يقوم بحسكم الشرع ملتزما

الشيخ يحيى السلاوى :

ولد فى الخرطوم عام ١٨٤٦ وهو حفيد الشيخ أحمد السسلاوى
العالم المالكي الذى رافق اسماعيل باشا عندما فتح السودان عام ١٨٢١
وعين الشيخ أحمد قاضيا لقضاة السودان كما ذكرنا .

سافر الشيخ يحيى لمصر واشترك فى الثورة العرابية وله قصيدة
يناصر فيها الثورة ويقال ان عرابي نفسه طلب من الشاعر أن ينظم قصيدة
تطبع وتنشر فى القطر المصرى وفعلا نظمها باثية من ٩٩ بيتا وقد لقيت
تلك القصيدة التى طبعت بماء الذهب رواجاً عظيماً فى مصر وبيع كل
نسخة منها فى شوارع القاهرة بجثية ذهباً .

والقصيدة تدعو لمناصرة الثورة مستثيرة همم المصريين وحميتهم

ومشنية على كل من ناصر الثورة من رجال العلم وشيوخ الطرق الصوفية
والتجار وغيرهم وقل إن تجد أدبيا سودانيا لا يحفظ مطلعها -

تقول أبيات القصيدة :

شغل العدى بتشتت الأحزاب
والله ناصرنا بسيف عسرايى
والقطر فيه من الرجال كفاة
للحادثات فهم أولو الالباب
وحمية الاسلام تلقى بالونا
حتمنا على كل امرئ اواب
هيا بنا يا أهل مصر الى الرضا
والأوز فى العقبى بغير حساب
انتم أولو الهمم التى بسهامها
كم من عدو آب شر ايساب
انتم ولاة المعبد اربساب النهى
والحر يظهر عند صدم مصاب
لاشغلنكم الحيسة فانها
ذال من يرضى بهتك جناب

لقد درجت الجوانب والوقائع المصرية على النيل من السودانيين
لتثبت ما أصابه السودان من تقدم يعزى الى سياسة محمد على باشا
وأسرته فقد جاء فى افتتاحية الوقائع فى عددها الثانى عشر ١٢٤٤ هـ /
١٨٢٩ م تصف أهل السودان بأنهم « خالون من العلم والعمل عارون من
معرفة النفع والضر يضارعون الوحوش حالة » -

● متخرجو الأزهر
في الثورة المهدية
(١٨٨٥ - ١٨٩٨ م)

وتنسب إلى قائدها الإمام محمد أحمد المهدي وكان عالما سودانيا فقيها صوفيا متأثرا بالمتصوف الكبير محي الدين بن عربي وكان في فترة شبابه ينوي الذهاب إلى مصر لمواصلة الدراسة في الأزهر .

تفرد الإمام المهدي بمذهب اجتهادي خاص فابطل العمل بالمذاهب الأربعة وأمر بإحراق كل الكتب الدينية ولم يبق غير القرآن والصحيحين وأحياء علوم الدين للإمام الغزالي وقال عن الأئمة الأربعة : -

« جزاهم الله خيرا فهم رجال ونحن رجال لو أدركونا لاتبعونا ، إن مذهبنا الكتاب والسنة » .

كان القانون الذي تارت عليه دولة المهدية هو الكتاب والسنة والمنشورات الدورية التي كان يصدرها الإمام المهدي والتي كانت تعالج مسائل قانونية وفتاوى .

كانت منشورات الامام المهدي وخطبه تهاجم ما سماهم بالتترك والمقصود بها الأوروبيون والاجانب الذين يحكمون بغير الشريعة الإسلامية ولم يقصد بها المصريين إطلاقا كما لم تكن ثورته وحروباته نزاعا بين السودانيين والمصريين بل كانت بين من آمن بمهديته ومن انكرها واتبع حكومة التترك وكانت أهدافه هي تخليص الشعبين السوداني والمصري من ظلم التترك والافرنج الذين حكموا السودان ومصر .

كان المهدي كغيره من قادة المسلمين في ذلك العصر - ابن عبد الوهاب ومحمد السنوسي وجمال الدين الأفغاني كان يرمي إلى إيجساد

عالم اسلامى بعد أن يقضى على ما سمي بالجاهلية السوداء التى رانت عليه .
ولذلك لم تكن دعوة المهدي تقتصر على تحرير السودان بل مصر والبلاد
الاسلامية من حكم الترك والعودة الى حكم الكتاب والسنة .

لقد جاءت دعوة المهدي مخالفة لما كان سائرا في السودان ومصر
ولخطورتها على الخلافة العثمانية والاستعمار في مصر اصدر السلطان
العثماني نشرة رسمية كذب فيها المهدي ونشرها في جميع البلاد الاسلامية
كذلك رجال الدين في مصر والسودان فقد اصدر الازهر فتوى ببطلان
الدعوة ، هذا الى جانب نشرات ورسائل لبعض علماء الاسلام في السودان
اشرت اليها آنفا .

لم يكن هناك والحالة هذه اتصال بين السودان والازهر في مدى
الثلاثة عشر عاما من حكم المهدي ومع ذلك انضم الى الثورة المهدي فقهاء
وعلماء سوانيون من متخرجي الازهر واسهموا في نجاحها وشغلوا
مناصب هامة خاصة في القضاء الشرعي نذكر منهم :

القاضي احمد جبارة :

وهو من متخرجي الازهر بايع الامام المهدي قائد الثورة السودانية
ضد الحكم التركي (١٨٨٢ - ١٨٩٨ م) وعين قاضيا للاسلام وهو اكبر
منصب قضائي آنذاك قتل عام ١٨٨٢ عند حصار الامام المهدي لمدينة
الابيض في غرب السودان .

الشيخ الحسين ابراهيم الزهراء :

ولد عام ١٨٣٣ .

وهو من متخرجي الازهر الذين يشسار اليهم بالبنان وكان علما
فقيها وشاعرا ويقال انه كان ندا للامام محمد عبده - عاد الى بلاده وانشأ
مدرسة في قرينته أم عظام في الجزيرة ثم التحق بالامام محمد المهدي قائد
الثورة المهدي وولى القضاء ثم أصبح قاضيا للاسلام في السودان ولكنه
عزل من منصبه ومات سجيناً عام ١٨٩٢ م . وله قصيدة معروفة من مائة
واثنى عشر بيتا يمدح فيها المهدي ويناشده ليولى مناصب الحكم للعلماء
جاء فيها : -

برج الغفلا ما الحق فيه خفاء
وتوالت الآيات والأنبياء

جهنم الولاية أمات دين محمد
وأهلوه قد ماتوا وهم أحياء
وتراكمت ظلماتهم بين الودى
لما أظلمت لهم ودام ولا
ماي استهانوا بل بشرع محمد
فعليه من أثر الدمار حياء
فتناولته من اللثام وأعطه
صنف الكرام فأهله العلماء
واشرك عليهم ما اردت من الهدى
يعطوا العهود لأنهم أمنساء
ووقف مرة أمام ضريح سيدنا الحسين في القاهرة وأنشد قصيدة
يخاطبه فيها استهلها بقوله :
حسين يا حسين أتى اليكم مني
وانتحيى الحسن والحسين

الشيخ محمد البدوي :

هو متخرج في الازهر ودرس على الشيوخ العالمين المعروفين عيش
وحسن العدوي وكان قاضيا في المهدي (١٨٨٥ - ١٨٩٨ م) مارس
القضاء بنزاهة وصدق وعين شيخا للعلماء في عهد الحكم البريطاني وعندما
توفي عام ١٩١١ م لم يخف الحاكم البريطاني سعادته بموته فقد كان
يعتبره من المعوقين للسياسة البريطانية في السودان ويصفه أحد
الأدباء (١) السودانيين النابهين بقوله : -

« كان الشيخ محمد البدوي من الائمة المنهجيين والعلماء المحافظين
على التقاليد المذهبية فهو من مدرسة الشيخ عيش وأمثاله فلم تعرف
عنه آراء تجديدية في الفقه الإسلامي ترجع محدثات العصر الى منابع
التشريع الاصلية واصوله المنة الثابتة كما فعل الامامان الجليلان
الافغانى ومحمد عبده ولكنه عرف بتعزبه لحرفية النصوص من فقه امام
دار الهجرة مالك بن انس والحديث الشريف ولكنه امام عصره فقد تفقه
عليه حقنة من العلماء وكانوا الشعلة التي ازاحت ظلمات الجهل في ذلك

(١) عبد القادر الشيخ ادريس (أبو حائل) في كتابه وفقات مع العباسي ص ١٠٣ .

العهد الجائر الجاهل وكانوا اللجنة الاولى لهذه المؤسسة العلمية الشامخة
- المعهد العلمي - التي بدأت تشق طريقها في العهد الحديث وبفضل
جهود علمائها المتصلة الى جامعة اسلامية ، .

الشيخ المصطفى عبد الرحمن :

ولد حوالي عام ١٨٥٧ م وهو من ذرية العالم الاسلامي المعروف
الشيخ إدريس ود الأرباب هاجر الى الأزهر بعد أن درس على الشيخ
الحسين الزهرام في الجزيرة ثم عاد الى البلاد فاقام مدرسة في كركوج في
أعلى النيل الأزرق ثم التحق بالامام المهدي في قدير في غرب السودان
واسهم في حصار الخرطوم ولكن بعد نجاح الثورة المهدية لم يرض على
بعض أعمال الخليفة عبد الله خليفة المهدي ورجع الى مصر وواصل دراسته
في الأزهر مرة أخرى حتى نال الشهادة العالمية ثم عاد بعد هزيمة المهدية
وقيام الحكم البريطاني وعين قاضيا لمديرية دنقلا في شمال السودان .
وكان شاعرا واديبا مرموق المكانة .

توفي في قرية العليفون على النيل الأزرق عام ١٨٩٩ وكان عالما
أديبا رشح لأن يكون قاضيا لقضاة السودان غير أن الاتفاق قد تم بين
بريطانيا ومصر بأن يشغل ذلك المنصب قاض مصري وفعلًا استمر
القضاة المصريون في ذلك المنصب عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٤٧ م حيث تولاه
قضاة سودانيون .

الشيخ محمد عمر البنا :

ولد عام ١٨٤٨ وبعد أن حفظ القرآن نزع الى الأزهر حيث تخرج
فيه وعندما عاد الى السودان انخرط في سلك الثورة المهدية وبإيعاز
المهدي ، وشغل منصبًا قضائيًا ومستشارًا للخليفة عبد الله . وعندما
هزمت المهدية عين مفتشًا للمحاكم الشرعية في فترة الحكم البريطاني
وتوفي عام ١٩١٩ م وهو شاعر مطبوع وله قصيدة مشهورة خاطب بها
نوار المهدية بعد هزيمة جيش هكس البريطاني في غرب السودان في
نوفمبر عام ١٨٨٣ وصف فيها شجاعة المحاربين واستحثهم للزحف على
الخرطوم عاصمة الحكم التركي حيث يقبع غردون الحاكم البريطاني باسم
الخدوي وقد جرت القصيدة على كل لسان وجاء فيها :

الحرب صبر واللقساء ثبات والموت في ثمان الاله حياة
أن الجهاد فضيلة مرضية شهادت بمحكم أجرها الآيات

قوم اذا حمى الوطيس رأيتهم
ولباسهم سرود الحديد وباسهم
فى السلم تراهم ركعا ساجدا
وتخالهم يوم القضاء ضارعا
يا مسيدا ومع الانام بخدمه
فانهض الى الخراطوم ان بسوجه
تبدوا الشريعة من وراء ظهورهم
خذ جيشك المتصور لا تحفل بهم
فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا

شمس الجبال وللضعيف حماء
شبهت به يوم القضاء الفارات
أثر السجود عليهم ومسحات
أسما وأسل رماحهم غابات
واستمطرتهم بالهدى بركات
أهل الغواية والمذاسم باتوا
عن دينهم شغلتهم الشهوات
ولتأسد من أمه الرايسات
فعل الصحابة إذ أتت غزوات

الشيخ اسماعيل عبد القادر الكردفانى :

وهو حفيد الشيخ اسماعيل الولى فى كردفان وقد التحق بالأزهر
وهو طالب صغير اذ رافق خاله الشيخ أحمد الأزهرى الى هناك حيث اتم
تعليمه ومنحه علماء الأزهر اجازات علمية تشبهه بنبوغه ومنهم العلامة
المصرى حسن الطويل كبير علماء الأزهر آنذاك .

تولى الشيخ اسماعيل التدريس فى الأزهر وقتا ثم عاد الى البلاد
وعين مفتيا لديار كردفان وكان يقوم بالتدريس أيضا بجانب وظيفته فى
القضاء وقد تخرج على يديه علماء كثيرون وكان أدبيا وشاعرا نال الجائزة
الأولى فى مسابقة شعرية نظمتها مجلة الجوائب المصرية وعندما قامت
الثورة المهدية وحكومتها فى السودان (١٨٨٢ - ١٨٩٨ م) التحق بالمهدى
وعمل فى سلك القضاء وله مؤلف فى تاريخ المهدي سماه « سعادة
المستهدي بسيرة المهدي » حققه العلامة السودانى الدكتور محمد ابراهيم
أبو سليم وكتب له مقدمة ضافية ووصف الكتاب بأنه مصدر هام من
مصادر تاريخ المهدية . كما سبق لمؤرخ عربى ان اعتبر الشيخ اسماعيل
بمنزلة ابن الاثير وأبى الفدا وابن خلدون والمقرئى - لقد توفي الشيخ
اسماعيل ساجدا فى منقاه فى جنوب السودان . ومن شعر الشيخ
اسماعيل قصيدة انشدها عام ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ يزئى الامام المهدي
ويصف القبة التى دفن فيها المهدي جاء فى القصيدة :

سمت قبة المهدي مجدا وسوددا
وقد نظم زهر النجوم قلائدا
ولاحت بانوار الهداية شمسها
ونبتت بها الجوزاء عقد منجمها
لجيد علاها حاز السبق مقسدا
فاشرق منها الكون وانفثع الردى

قلله منهاها ومجسسكم صنعها
ولم لا وقد ضمت لأفضل وارث
خلاصة صفو المجد من آل هاشم
امام له في كل مجد ومسؤود
محمد المهدي بشرى محمد
به الله أحيانا وأظهر دينه
وقد أحرز الدين الحنيفي بالظبا
ولا دعاه الله جسل جلاله
أجاب النسا فالقلب بعد فراقه

وروضتها الزهراء بالفضل والندى
لخير الورى طه المسمع احمد
والفضل من في الخير راح او اغنى
مأثر فمسل ما أجسل وامجنا
شفيع الورى في الحشر من طاب محتدا
وأولاه أفضلالا ونصرا مؤيدا
ودمر جبارا طفى وتمبردا
لدار بهما الفوز العظيم مغلدا
بذوب أسى والصبر عز وابعدا

الشيخ ابراهيم شريف الدولابي :

وهو من أسرة الدواليب المعروفة في كردقان في غرب السودان درس
على جده ود دوليب ثم هاجر الى مصر والتحق بالأزهر ولما عاد الى السودان
كانت الثورة المهدية قد نشبت ضد الحكم التركي فرافق المهدي الى
الأبيض عاصمة كردقان عام ١٨٨٢ م . وكان شاعرا أيضا وقد رثا المهدي
بقصيدة جاء فيها :

كيف التثام فسؤاى المغفور
أم كيف يثلك الضنى عن مهجة
أسف على المهدي من عهد الصبا
لا زال في كنف العناية يفتدى
حتى انتهى لقامه الأعلى الذى
واقامه المختار عنه خليفة
ورقى الى كرسية متسنا
ناقت الى الذات العلية روحه
قمضى وأودع كل قلب حسرة
تبكى المساجد والمحارب فقده

ورفو، دمع معاجسرى المفجور
أحشاؤها تصلى على نور
قد كان معصوما عن المتحجور
بدقائق التبصير والتنوير
عنه النهى فى حيرة وقصور
خلعت عليه ملابس من نور
فى مشهد بالأوليا معصور
وسعت لمقصده صدقها المدخور
وحشسا الحشى ببلايل وسعير
ومواطن الأذكار والتسكير

وعين قاضيا شرعيا فى عهد الحكم البريطانى على السودان وعضوا
فى مشيخة العلماء .

الشيخ عمر الأزهرى :

ولد عام ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م فى قرية الصوفى بالقرب من مدينة
القضارف فى شرق السودان حيث حفظ القرآن ودرس قسرا من الفقه

واللغة العربية ثم رحل الى مصر للدراسة في الأزهر وعندما عاد قام بتدريس مواظنيه وكان شاعرا وله قصيدة نالت إحدى جوائز مجلة الجوائب التي كان يصدرها أحمد فارس الشدياق في الامتانة ثم نقلت الى القاهرة وكان مطلعها :

سلوا عن فؤادى مسيلات الدوائب فقد ضاع من بين القلوب الدوائب
فلا سلمت نفس من أحب قد خلت ولا كان جفن دمعته غير ساكب

عين قاضيا في المهديّة وكذلك في عهد الحكم البريطاني في السودان وتوفي عام ١٩١٥ م وهو والد الشيخ الصديق الأزهرى العالم العامل المعروف في مدينة رفاعة عاصمة مديرية الجزيرة .

● فقهاء متصوفون

سلك أغلب الرواد السودانيين من متخرجي الأزهر ان لم يكونوا كلهم طريق التصوف متأثرين بأسائدتهم في الأزهر وبمن درسوا مؤلفاتهم من الفقهاء - والمتصوفين - لم يكن طريق الصوفية في بادئ أمرهم سهلا معبدا فقد تصدى لهم الفقهاء وقام الخسلاف بينهما حتى اضحى عداء مستحكما وصفه العلامة أحمد أمين بنكية النكبات ومصيبة كبرى ولقى المتصوفون أذى وحربا عنيفة الى ان انتصر لهم الامام الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري بكتابه احياء علوم الدين واستطاع ان يسلك طريقا حبيب الفقهاء وأهل السنة في التصوف حيث دعا للمحافظة على الشريعة الظاهرة مدعمة بالنية الحسنة وتطهير الظاهر كتطهير الباطن - لقد كان للامام الغزالي فضل في ازالة العداء بين الفقهاء والصوفية وهذا يعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ الفكر الاسلامي .

وقامت الطرق الصوفية بعد موت الغزالي ١٠٥٩ - ١١١١ م وانتشرت بدرجة كبرى مستمدة قوتها من اتجاهاته ونزعته السنية وأسست زواياها وروابطها ومراكز العلم في البلاد الاسلامية كما فعل هو نفسه في بلاده .

كانت الطريقتان الصوفيتان اللتان تسيطران على المجتمع الاسلامي آنذاك هي القادرية (الجيلانية) وتنسب الى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م والمدفون في بغداد ، لقد كان فقيها درس عليه تلاميذه التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول

والنحو وكان يفتي على مذهبي الشافعي وابن حنبل وكانت فتواه تعرض
على الفقهاء في بغداد فتعجبهم كل الاعجاب .

والطريقة الثانية هي الشاذلية وتنسب الى الشيخ أبي الحسن
الشاذلي الذي توفي في صحراء عيذاب عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وهو
في طريقه الى الحج ، كان الشيخ الشاذلي فقيها مالكيا اشتغل بالعلوم
الشرعية حتى أتقنها كتابة وسنة وتفسيرا وكان يخاطب أتباعه بقوله :

« اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع
الكشف وقل لنفسك ان الله تعالى قد ضمن له العظمة في الكتاب
والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة » .

لقد كان المجتمع المصري يعج بالفقهاء المتصوفين في عهدي المماليك
٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م الى ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م آل عثمان ٩٢٢ هـ /
١٥١٧ م الى ١٢٥٠ هـ / ١٨٠٥ ومن قبيل المثال نذكر بعضا من
النايين (١) منهم من كان لهم أثر على المجتمع المصري والسوداني فيما
بعد وهم الشيوخ :

تاريخ الوفاة

٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م	عز الدين عبد السلام ويسمى بسلطان العلماء
٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م	محي الدين النووي
٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م	الامام البيوصري صاحب البردة
٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م	ابن عطاء الله السكندري
٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م	تقي الدين السبكي
٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م	سراج الدين أبو حفص عمر الملقب
٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م	السراج البلقيني ويعتبر عالم المائة الثامنة
٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م	شهاب الدين بن حجر العسقلاني
٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م	بدر الدين العيني
٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م	جلال الدين السيوطي
٩٧٢ هـ / ١٥٦٦ م	عبد الوهاب الشعراني
١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م	ابراهيم اللقاني
١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م	أبو عبد الله الخرشني أول شيخ للاذهر

(١) راجع جريدة الأولياء - الجزء الثاني للسيد محمود أبو الفيض وكذلك عصر
سلاطين المماليك المجلد الثالث تأليف محمود رزق سليم .

وكان هؤلاء جميعهم فقهاء متصوفين . أما أهم الفقهاء الصوفيين (١) الذين درس عليهم أولئك الرواد من متخرجي الأزهر أبان الحكم العثماني وتأثروا بهم وحذوا حذوهم عند عدد منهم لبلادهم فهم :

تاريخ الوفاة

الشيخ زكريا الانصارى ويعتبر خاتمة فقهاء العصر ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م
الملوكى

شمس الدين اللقانى

ناصر الدين اللقانى

عبد الرحمن الاجهورى

٩٩٨ هـ / ١٥٩٠ م

محمد البنوفرى

١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م

أحمد محمد العدوى الملقب بالدردير كان شيخا

للمالكية ويرصف بأنه امام وقته وعصره

١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م

الشيخ الامير

وهناك فقهاء متصوفون درس عليهم السودانيون فى الأزهر فى العصر الحديث الذى تلا الحكم العثماني نذكر منهم مفتى المالكية الشيخ محمد عليش والشيخ ابراهيم الباجورى شيخ الأزهر ومصطفى الحضاوى وغيرهم .

لقد كان أولئك الرواد كاساتذتهم فى الأزهر فقهاء صوفيين يتبعون للطريقة الشاذلية أساسا ويرى أن الطريقة الشاذلية كانت أول طريقة دخلت السودان على يد الشريف حمد أبى دنانه صهر محمد بن سليمان الجزولى داعية الطريقة الشاذلية فى المغرب والمتوفى (من حوالى ١٤٦٥ م) وذلك قبل قيام سلطنة سنار الاسلامية ١٥٠٤ م وهى بذلك قد سبقت الطريقة القادرية (الجيلانية) التى دخلت السودان على يد الشيخ تاج الدين البهارى الذى قدم السودان فى حوالى ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م .

وبقيتى أن الطريقة الشاذلية انتشرت فى السودان أساسا بفضل أولئك الرواد من الفقهاء الذين درسوا فى الأزهر وإذا رجعنا الى كتاب

(١) راجع جبهة الأولياء الجزء الثانى للسيد محمود أبو الفيض وكذلك

عصر سلاطين الماليك المجلد الثالث تأليف محمود رزق سليم .

طبقات ود ضيف الله لوجدنا في سير كثير من الفقهاء ما يدل على انهم كانوا ينتسبون الى الطريقة الشاذلية . ومهما يكن من أمر ، فقد عرفنا عن الطريقتين الشاذلية والقادرية (الجيلانية) انهما تسييران على هدى الكتاب والسنة ولهذا كان اثر أولئك الرواد الفقهاء المتصوفين واضحا على المواطنين اذ انهم ارسوا قواعد التصوف الشيء الذي تدعو له الشاذلية والقادرية وكانوا بذلك واضعي هذا التقليد السليم الذي لم يدع مجالا للشعوذة أو النصب والعداء بين الفقهاء والمتصوفين كما هو الحال في بعض البلاد الاسلامية .

لقد أنشأ الشيخ محمود العركي عدة مدارس على النيسل الأبيض في النصف الأول من القرن السادس عشر على غرار الزوايا والروابط التي يقيمها المتصوفون حتى اضحى النيسل الأبيض كعبة لطلاب العلم والدرس ولكنها دمرت جميعها في عام ١٦٨٤ على يد قبائل الشلوك الجنوبية والشيخ محمود كان أول سوداني تذكره الوثائق درس في الازهر على نحو ما ذكرنا وكان فقيها صوفيا وقد درس على أساتذة صوفيين في الازهر . كذلك كان أولاد جابر أقطابا وأولياء وهذه هي الغاية الصوفية ولعل الاجازة التي منحها الشيخ عبد الرحمن بن جابر لتلميذه ابراهيم ولد رابعة وما حوته من نعوت والقاب تشير بوضوح الى الأثر الصوفي والطريق الذي كان يسلكه الشيخ عبد الرحمن وما كان يطلبه من تلميذه أن يكون مربيا للمريدين وقادة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين .

انني لا أشك مطلقا بان الشيوخ الفقهاء محمود العركي وأولاد جابر كانوا صوفيين ينتسبون الى الطريقة الشاذلية على نحو ما كان عليه أساتذتهم في الازهر .

كذلك كان الشيخ عبد الله العركي (١٥٧٠ م) شيخ الطريقة القادرية (الجيلانية) في السودان وعميد أسرة العركيين المعروفة في الجزيرة في الاقليم الأوسط عالما صوفيا وكان ينشر للطريقة القادرية بروح العالم الفقيه وكان ينادى في قومه واتباعه ويحذروهم الا يخوضوا في مسائل التصوف دون دراية الا بعد أن ينالوا قدرا كبيرا من العلم وكان يتخذ لنفسه طريقا مرضيا لأهل الفقه والتصوف اذ كان ينأى بنفسه عن شطحات بعض المتصوفين ويعتبر الشيخ عبد الله العركي أحد الذين أرسوا قواعد التصوف السني ونجد أثر ذلك الاتجاه عند قومه العركيين المتصوفين اذ يشترطون على اتباعهم ان من لا يحفظ مختصر

خليل عن ظهر قلب لا يولى شياخة الطريقة القادرية . والشيخ عبد الله
سافر الى المحجاز وأخذ يدرس للطلاب في مقام الامام مالك عدة سنين
ثم عاد الى بلاده بناء على رغبة أهله ، لم تقف رسالة هذه البيوتات الدينية
على نشر الاسلام وتعليم الناس أمور دينهم بل كانوا موثلا للفقهاء
والضعفاء وكان يستجير بهم الناس وقت الشدة والضيق كما عملوا على
توحيد الناس وتآلفهم وأصبح كل فرد في الطريقة أخا للأخر مما أضعف
الرابطة القبلية الهمجية التي أثرت على العلاقات بين الناس ، وقللت من
حدة الصراع والخلاف بين القبائل فيما بينها وربطت الناس على أسس
دينية قومية أوسع وأشمل من القبيلة .

وتكن ران على السودان في أواخر عهد سلطنة سنار جيسو من
الاضطراب والفوضى فنشبت الحروب والغارات القبلية وانفرط عقد
الأمن وأصبح الطريق الى مصر وعرا لا يأمن المسافر فيه على نفسه وسدت
بذلك أمام المواطنين منافذ الهوء النقي الصالح الذي يأتيها من مصر ومع
ما نتج من حالة اليأس والفقر تفشى الدجل والشعوذة .

ورغمًا عن ذلك ووسط ذلك النجو المضطرب كانت مدارس العلم
التي انشأها أولاد جابر أولئك الرواد من متخرجي الازهر تقوم بدورها
خير قيام وقد شهد بذلك الرحالة السويسري بوركهاردت (١) (١٧٨٤
... ١٨١٧) الذي زار السودان عام ١٩١٣ ولاحظ كيف كان الأهالي في
منطقة الشايقية يقبلون على تلك المدارس وكانوا يدرسون فيها العلوم
الدينية والرياضيات والفلك كما لاحظ أن كثيرا من أبناء القبائل المجاورة
يفدون الى تلك المدارس حيث يقضون فيها هناك عشر سنوات أو أكثر
في تحصيل العلم ويقوم المواطنون هناك بايوأئهم وإطعامهم كما لاحظ
ما كان يلقاه العلماء من احترام وتبجلة من مواطنيهم وأن كثيرا من الأهالي
يعرفون القراءة والكتابة .

كذلك لاحظ عندما سافر جنوبا الى بربر والدامر أن طلابا كثيرين
من دارفور وكردفان وسنار يقصدونها لتلقى العلم في مدارسها وتوسع
في ملاحظاته عن الدامر حيث (٢) أعجب بمعاملة أهلها ونظامهم وطباعهم
ووصف الدامر بأنها بلدة نظيفة ذات شوارع منظمة يسودها الأمن
والطمأنينة ولم يحاول أحد أن يجبي منه اتاوة أو أن يرهقه في بيع أو

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم في السودان ص ٣٣ .

(٢) عبد المجيد عابدين - تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٦٢ .

شراء ورأى البلدة يسودها جو من التقوى والصلاح وعلم أن الفضل في ذلك يرجع الى أن الرئاسة والسيادة في الدامر لرجسالة الذين ينتمون جميعا الى أسرة المجاذيب نسبة الى الشيخ حمد بن محمد المجذوب. وكان علماء المجاذيب قد تلقوا تعليمهم اما في الازهر أو مسكة وهم ينسبون الى الطريقة الشاذلية المجذوبية .

وكذلك كانت بقية الخلاوي والمدارس في توتي والعليفون والجزيرة والنيل الأبيض حيث كان على رأسها علماء متصوفون ينشئون بها عسلي نفقتهم أو يشترك معهم في الاتفاق عليها أهل البلدة جميعا ولذلك لم يكن التعليم الديني في السودان منذ عهد سلطنتي سنار ودارفور الى العهد التركي وإلى ما بعد ذلك تحت اشراف السلطة الحاكمة أو أي إدارة نظامية وإنما كان يقوم به الفقهاء أو الجماعات تطوعا واحسانا واكتفى سلاطين سنار وولاة العهد التركي من بعدهم بتقديم بعض من التسهيلات واقطاع الفقهاء اقطاعيات لهم للمعيشة والمأوى .

وعندما قامت المهديّة (١٨٨٥ - ١٨٩٨) أحرقت الكتب ولم تبق الا على القرآن والصحيحين واحياء علوم الدين للغزالي وكتب الشعرائي وتفسير البيضاوي والجلال السيوطي وابطلت بطبيعة الحال الطرق الصوفية .

وعلى الرغم من أن فترة المهديّة كانت فترة حروب وجهاد الا أن خليفة المهدي عبد الله شدد على الناس لحفظ القرآن أو ذلك القدر من سورة ما يؤدون بها الصلاة وعكف الناس على القراءة والكتابة وحفظ القرآن حيث كان الجد يدرس مع حفيده والولد مبيع أبيه وانتشرت مدارس القرآن في كل انحاء البلاد وبلغ عددها في أم درمان عاصمة البلاد وحدها آنذاك ثمانمائة (١) .

وعندما سقطت دولة المهديّة في عام ١٨٩٨ واستتب الأمر لبريطانيا أعادت الطرق الصوفية الى ما كانت عليه وشجعت قيامها مثل ما فعل محمد علي باشا قبل ذلك فقد شجع بعضا من الطرق الصوفية للنزوح الى السودان كالطريقة السعدية والرحمانية والبرهانية . وأخذت تقضى

(١) م. عمر بشير - تطور التعليم في السودان - ص ٥٥ .

رويدا رويدا على نظام الخلاوى والمدارس الدينية باعتبارها مؤسسات تدعو للتعصب الدينى وحلت محلها الكتاتيب والمدارس النظامية والتي لم يقبل الطلاب عليها فى بادئ الأمر بل كانوا ينظرون اليها كمراكز للتبشير وكان بعض من الأهالى يرفضون فتح مدرسة فى بلدتهم بسبب يعتبرونها كنيسة (١) لا مدرسة ونسوق مثالا لذلك أهالى جزيرة مقرات فى شمال السودان .

(١) نفس المصدر - ص ٨٢ .

❶ المرأة السودانية والتعليم الدينى قديما

أما عن تعليم المرأة فقد حرص أولئك الرواد من علماء السودان على تعليم البنات أسوة بالولد وكانت خسلاوى القرآن فى الشمال والجزيرة وسواكن وأرض البجا وكردفان ودارفور تجمع بين البنات والولد تعليما مختلطا ويروى أن أكثر تلاميذ العالم السودانى الشيخ حمد بن محمد بن على المشيخى المعروف بـ «أم مريوم» (١) (١٠٥٥ هـ - ١٦٤٥ م) والمتوفى ١١٤٢ هـ - ١٧٣٠ م - من النساء حيث أن أتباعه يذكرون فى مدحه أنه علم نساء قبيلة فزارة وجعل منهن عالمات وفقهيات فى الدين • وكان فى مقدمة الدارسين أولاد وبنات أولئك العلماء حيث نجد كل نساء البيوتات الدينية يحفظن قدرا من القرآن إن لم يكن كله ويعرفن شئون دينهن معرفة تامة ومنهن من تعمقت فيه وظل هذا التقليد معمولاً به منذ ذلك العهد •

ويسجل التاريخ أسماء نساء كثيرات فتحن المدارس وأخذ العلم عليهن كثير من الناشئة بنين وبنات وتسوق مثالا لذلك :

فاطمة بنت جابر أخت أولاد جابر العلماء الأربعة الذين درسوا فى الأزهر والذين كان لهم أثر واضح فى الحياة الدينية فى السودان كما ذكرنا آنفا فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى وتوصف فاطمة هذه بأنها كانت نظيرة لأخوتها فى العلم والدين وقد حفظت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة وكانت تقوم بتعليم الصبيان فى مسجدتها بالدقار فى دنقلا

(١) ود ضيف الله - الطبقات - ص ٦٧ •

وتنفق عليهم من مالها وقد ولدت العالم السوداني محمد بن سرحان المعروف بصيغرون والذي هاجر من دنقلا جنوبا فأنشأ مدينة علمية بالقرب من شسندى عرفت بقوز العلم والتي أصبحت منارة للعلوم الإسلامية في منطقة الجعليين كذلك كانت بنتها آمنة وكانت عالمة كأمها كما كانت لآمنة ابنة عالمة أيضا اسمها قوته وكلهن مارسن تعليم الصبيان والبنات وتخرج على أيديهن من ذريتهن علماء نابھون نهضوا برسالة العلم في دنقلا وشسندى وإقليم الجزيرة .

وهناك أيضا عائشة بنت محمد القدال بن إبراهيم المعروف بالغرضى وقد درس جدها الغرضى على عبد الرحمن حمدتو الذي درس في الأزهر على الشيخ البنوفرى . وكان والدها وجدها عالمان يشار إليهما بالبنان .

لقد كانت لعائشة هذه مدرسة على النيل الأبيض لتعليم الصبيان بنانا وأولادا ومن بين من درس عليها الشيخ خوجلى العالم السوداني المعروف المتوفى عام ١١٥٥ هـ - ١٧٤٢ م والذي ورد ذكره وذكر أبيه الشيخ عبد الرحمن الذي درس على الشيخ على الاحهورى فى مصر .

ونذكر أيضا بتول الغبشة (١) والدة الشيخ هجو وأخت الشيخ يعقوب جند أسرة اليعقوباب المشهورة بالعلم والتصوف وهو تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جسابر الذي درس فى الأزهر على الشيخ البنوفرى وكانت لها مدرستها الخاصة بها فى سنار لتعليم الصبيان وعرف عنها حفظها للقرآن وتجويده كما كانت ناسخة ماهرة للكتب مما زاد من شهرتها وعلو صيتها وكان فى البلاد علماء وبيوتات تضطلع بمهمة نسخ الكتب بغرض البيع أو التبرك .

كما ظهر نساء أخريات فى أوقات متفاوتة نذكر منهن أمونة (٢) بنت عبود فى دنقلا التى تحدث عنها العلامة رفاعه رافع الطهطاوى وذكر أنها كانت تقوم بإقراء القرآن الشريف والمتون وإدارة مكتبتين أحدهما للعلماء والثانى للبنات وكانت تنفق من كسبها بغزل القطن وتشغيله وكان منزلها كالتكية للفقراء والقاصدين ببيت الله الحرام .

وكان فى قرية شركيله فى كردفان سيدتان هما عائشة (٣) وآمنة -

(١) من مقال للاستاذ الطيب محمد الطيب - نساء سودانيات شاركن فى صنع التاريخ - الكواكب المصرية .
(٢) و (٣) د. عبد العزيز عبد المجيد - القرية فى السودان ج ٢ ص ٥٦ .

انقطعتا لتعليم اولاد المسلمين القرآن الكريم في مسجد انشأناه خصيصا
لهذا الغرض .

وفي قرية البشاقرة غرب على بعد حوالي ٥٠ ميلا جنوب الخرطوم
كان بعض نساء القرية يعلمن الناشئة القرآن الكريم وقد نبغت منهن
الجاز بنت اسماعيل حفيدة الفقيه محمد راد الله متخرج الازهر وهو حفيد
الشيخ العالم أرباب بن عون المعروف بأرباب العقائد مؤسس مدينة
الخرطوم وكانت تحفظ القرآن ومختصر خليل وتقرأ للفقيه المحدث التابع
ابن سيرين .

وكانت هناك في أرض الخلاوين بالجزيرة أم كلثوم بنت القرشي ابنة
القرشي ولد الزين شيخ الامام المهدي وكانت تقيم داخلية لايواء البنات
الطالبات حيث لا تغادر البنت الداخلية الا بعد ان تحفظ القرآن .

لقد ازدهرت خلاوى القرآن على طول السودان الشمالى وعرضه
وكان للنساء نصيب كبير في نشر العلم في ربوع البلاد كما ذكرنا وما
يجدر ذكره ان مدارس القرآن في السودان عرفت التعليم المختلط منذ
عهد بعيد فقد كان الصبيان ... بنين وبنات ... يدرسون جنبا الى جنب
ثم يتفرون بعد ذلك لمواصلة التعليم عندما يبلغون سن المراهقة .

❁ الشعر السوداني

١ - في عهد سلطنة سنار :

بدأ الشعر العربي في السودان صوفي النزعة والاتجاه فقد كان ذلك « الشعر (١) في بواكيره وليد بيئة صوفية متدينة ذات حظ غير كبير من التنوع الثقافي » وكانت تتغلب عليه اللغة العامية ولكنه في مضمونه اكتسبت فيه كل عناصر الشعر الصوفي من حيث المديح في الرسول ووصف مناقبه ومكارم أخلاقه وغزواته والدعوة إلى الزهد والتقشف والتخلي بالأخلاق الحميدة وكان شعراء ذلك العهد - عهد سلطنة سنار - هم رجال الدين والتصوف أنفسهم ومهما يكن من شيء « فآدباء (٢) الصوفية هم الذين رحموا تاريخ الأدب العربي من تلك الوصمة وصمة التزلف بالمديح إلى الملوك والرؤساء والأمراء ... وهم الذين جعلوا السلامة من باب السلطان كالسلامة من باب الطبيب وكانت عندهم سلامة الأرواح فوق سلامة الأبدان ... وهم الذين عطروا الأدب العربي بأريج الكرامة والعزة والصيانة والعفاف وهم الذين وصلوا المشرق بالمغرب وحفظوا الإسلام بأذاعة المعاني الروحية والنوقية ... » .

ولم يبق لنا من شعر ذلك العهد الشيء الكثير إلا قصيدة العالم الصوفي الشيخ فرح ود تكتوك المتوفى عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤ م والتي تحمل نفس تلك المعاني السامية التي تبعد الناس عن التزلف والتمسح بالسلطين وقد بدأها بقوله :

(١) د. احسان عباس - الشعر السوداني - نظرة تقييمية نقلا عن أصول الشعر

السوداني - عبد الهادي صديق ص ٨٠ .

(٢) نقلا عن التصوف الاسلامي ، د. زكي مبارك ج ١ ص ٣٣٨ .

يا واقفا عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من هم وتحزين
تأني بنفسك في ذل ومسكنة وكسر نفس وتخفيض وتهوين
إذا كنت تطلب عزاً لا فناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين

ثم أخذ شعر المديح يرتقي وتغلب عليه العامة في آخر العهد التركي والمهدية وظهر شعراء نوابغ مثل قدوره وود تميم واب كساوي وحاج المساحي وود مسعد واب شريعة وغيرهم وكانت مدائحهم حافلة بالمفردات والكلمة المعبرة والمادة التاريخية والفقهية مما يبرهن على علو كمهم في العلم والدين والتاريخ الاسلامي كمن سبقوهم في هذا المضمار ابن الفارض والنايبي والبرعي .

٢ - في العهد التركي

أما الشعر في العهد التركي فيمثل بداية مرحلة جديدة لشعر عربي فصيح ذي اتجاه ديني صوفي ينصرف في الغالب الى المديح النبوي وشعراء هذه الفترة من العلماء الذين تلقوا تعليمهم في الازهر الشريف وعادوا الى السودان للعمل بالتدريس والقضاء الشرعي . لقد كانت بداية الشعر العربي الفصيح في السودان على يد هذه الفئة من العلماء الذين تلقوا تعليماً دينياً ولغوياً في الازهر ويؤرخ أحد الأدباء (١) السودانيين ان بداية الشعر الفصيح تلك تقع ما بين عام ١٨٦٠ الى بداية الحرب العالمية الأولى أي بعد أربعين سنة من قيام الحكم التركي في السودان ولم تكن اللغة العربية حتى ذلك الوقت لغة مصر الرسمية الى أن أصدر الخديوي اسماعيل قراراً بأن تصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلاً من اللغة التركية في شوال ١٢٨١ هـ / ١٨٧٠ م وقد كان هذا القرار ذا مغزى سياسي في مصر والسودان بل والعالم العربي من الوجهتين الأدبية والاجتماعية وفتح منافذ للغة العربية لتنمو وتنتشر .

لقد علق أحد الأدباء السودانيين على الشعر في العهد التركي بقوله :

« فشعر (٢) العلماء اذن وهو بداية الشعر الفصيح في السودان لم يكن تطوراً طبيعياً للشعر الشعبي شعر البطولة والغروسية الى التعبير

(١) د. محمد ابراهيم الشوش - الشعر الحديث في السودان .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

باللغة الفصحى وإنما هو شعر أفراد قلائل هيأت لهم ظروفهم الفردية اتصالاً بالخارج وتعليماً ازهرياً دينياً مكنهم كل ذلك من نظم هذا الشعر وهو شعر فقهي وليس فيه من مظاهر القومية إلا تلك المسحة الصوفية التي أشرنا إليها

إن الشعر (١) السياسي في هذه الحقبة قليل ومع قلتة يصور الأحداث الشيرة داخل السودان ولكنه أعرب إلى حد ما عن رضا العلماء من الحكومة وشاطر مصر الشقيقة في ثورتها العرابية فوضع اللبنة الأولى للكفاح المشترك بين الشعبين السوداني والمصري وهذا الشعر القليل يحمل خصائص لم يعرفها شعرنا من قبل .

لقد ارتفع (٢) الشعر في ذلك العهد في مستواه عن شعر سلطنة سنار إذ تحققت فيه لحد كبير سلامة اللغة وصحت التراكيب وارتقى عن أسبقه من حيث العبارة والفكرة واتسم في مجمله باستقامة الموسيقى وإن لم يخل من اضطراب .

الشعر في المهدي :

تطور الشعر في هذه الفترة الوجيزة وكان أبرز شعرائها هم من متخرجي الأزهر الذين وردت أسماؤهم آنفاً في دراستنا عن سيرهم وقد ذكرنا نماذج من أشعارهم لتلقى ضوءاً على ما كان عليه الشعر آنذاك حيث كان بطبيعة الحال شعر حرب وثورة وحماسة وبطولة ومدح للمهدي وقواده وظهرت شخصية الشاعر السوداني مستقلة متفردة ولعله من المناسب أن نذكر هنا أبياتاً من قصيدة للعالم السوداني الشيخ محمد الطاهر المجنوب وهو من أسرة المجاذيب ذات الأثر الكبير في السودان لذيوع صيتها آنذاك ولأنها تصف بعضاً من معارك الثورة المهدية في هنسندوب وهشيم وسواكن في شرق السودان وتتغنى بانتصاراتهم على الجيش البريطاني ويقال إنه ارتجلها ارتجالاً .

(١) محمد محمد علي - الشعر السوداني في المارك السياسية ٩٨ .

(٢) عز الدين الأمين - تراث الشعر السوداني ص ٧٦ .

هندوب تعرف صبرنا
وهشيم تشهد عزمنا
يا طالا صدنا بها
جيشنا يرن سلاحه
وسواكن تدرى بنا
بالشرفى كأنه
زمننا رصدنا نحوها
وتنسر فى أرجائها
ولطالما برزت لنا
من كل فج يمنية
فتجساذبتهم خيلنا
والبيض تسلب فيهم
حتى آتت أخبارنا
نحيى لدين الله بسمل

كيف ارتكبنا للمصائب
كيف أدعنا للمصائب
صيد الغنم للتعالب
كالرعد اذا ما ؟ المزن صائب
انا لدى الهيجا نضارب
وقع الصواعق فى المضارب
نبلى العجائب والغرائب
كالليث اذ شب الخسائب
منها العساكر والكتائب
بل يسرة من كل جانب
ترهى بهم رمى الشواقب
فوق العمائم والعصائب
بين مصر تكتبها الجوائب
فى شأنه تلقى المصائب

ويلاحظ هناك اشارة فى قصيدته الى مجلة الجوائب التى كان يصدرها أحمد فارس الشدياق فى مصر وقد كانت تعنى كثيرا بأخبار السودان وكانت تنشر مقالات وقصائد لهم وكان مكاتبها فى السودان الشيخ محمد عثمان حاج خالد وهو من أسرة العراب المعروفة وحفيد الشيخ حامد بن الفقيه سليمان المعروف باللين وهو أول من أحضر من مصر شرح عبد الباقي على خليل والشرابخيتى على العشماوية والشيخ محمد عثمان والد الاستاذ الدرديرى القاضى أحد أقطاب الحركة الوطنية فى السودان وعضو مجلس السيادة الذى حل محل الحاكم العام البريطانى وقد أرسل الخليفة عبد الله الشيخ محمد عثمان سفيراً له لدى الامبراطور منليك عاهل الحبشة آنذاك واستطاع ان يبرم اتفاقية دفاعية بين السودان والحبشة عام ١٨٨٩/ ٩٣١٥ م .

● دور الأزهري إبان الحكم البريطاني

(١٨٩٨ - ١٩٥٥ م)

كانت بريطانيا منذ ان جشمت على صدر مصر عام ١٨٨٢ م تعدد
العدة لاحتلال السودان ليكتمل به مخططها وليكون تحت قبضتها الطريق
ممتدا من مصر الى الكاب في جنوب أفريقيا - كان الخديوي توفيق قد
سرح الجيش المصري في ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ بأمر الغزاة البريطانيين
وذلك بعد ستة أيام من معركة التل الكبير التي هزم فيها الثوار المصريون
وكون جيشا مصرية جديدا يدربه ويقوده ضباط بريطانيون . وأمام الصراع
الدولي المحموم والسباق نحو استعمار افريقيا وخوفا على الا يؤدي احتلال
السودان الى مضاعفات ومشاكل دولية بين بريطانيا ومناقستها القسوية
فرنسا بالذات سمرت بريطانيا حملة لغزو السودان باسم مصر باعتبار
السودان كان جزءا من ممتلكات الخديوي - وسميت « حملة استرجاع
السودان » وكان السودان انذاك يخضع لحكم الشريعة المهدية
(١٨٨٥ - ١٨٩٨ م) وعين القائد العام للجيش المصري الجنرال البريطاني
السير هيربرت كتشنر قائدا لحملة الغزو يعاونه ضباط بريطانيون كبار
وآخرون مصريون وسودانيون وكانوا جميعهم يعتبرون تابعين لخديوي
مصر وكان الجنود كلهم مصريين مع فرقتين سودانيتين دربتا في مصر
خصيصا لهذه الحملة .

وكان كلما تم للجيش الفاتح احتلال مدينة أو منطقة يرفع عليها
العلم المصري واستمرت الحملة بطيئة عامين من الزمان وفي المعسركة
النهائية الفاصلة في أم درمان عاصمة البلاد ألحقت فرق بريطانية بالحملة

وفي ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ تم لها النصر النهائي على حكومة الثورة السودانية عقب معركة فاصلة وبعد مقاومة شهد التاريخ قليلا مثلها مما سجله الضباط البريطانيون الذين اشتركوا في المعركة أو المراسلون الحربيون المرافقون للجيش الفاتح وكان النصر حقيقة حليفا للسلاح الفتاك الذي استخدم واخترع ليستعمل خصيصا في هذه الموقعة وهو مدفع المكسيم السريع الطلقات .

توجه قائد الفتح الجنرال كتشنر الى الخرطوم ورفع العلم ^{طاني} والمصري ولأول مرة على أنقاض السراي الذي كان يحكم ^{ردان} غردون باشا البريطاني الجنسية باسم خديوي مصر قبل ثلاثة ^{سرا} عاما منذ ذلك الوقت وكان الثوار السودانيون قد قتلوا غردون هذا عندما سقطت الخرطوم في أيديهم فجر ٢٦ يناير ١٨٨٥ .

املت بريطانيا على مصر اتفاقية في يناير ١٨٩٩ ليحكم بمقتضاها السودان عرفت باتفاقية الحكم الثنائي - بريطانيا فعلا ومصر اسما : وكان قد ابتدع فكرتها اللورد كرومر (ايفلن بيرنج) معتمد بريطانيا وقتئذها العام في مصر والذي كان يحكم قبضته على الإدارة في مصر وهو من عائلة بيرنج البريطانية ذات الثراء والجاه العريض في بريطانيا - وعرف السودان منذ ذلك الوقت بالسودان الانجليزي المصري وعين كتشنر قائد حملة الفتح حاكما مطلقا على السودان .

لقد لقيت تلك الاتفاقية معارضة شديدة في مصر باعتبار السودان أرضا مصرية وليس لبريطانيا حق في المشاركة في حكمه وخرجت جريدة اللواء كمقال صاخر لمصطفى كامل في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٠٠ يعرب فيه عن سخطه وسخط طبقته على الاتفاقية ونظرة السودان باعتباره جزءا من ممتلكات مصر ويرد اللورد كرومر (١) مبتدع الاتفاقية بقسوة : -

انجلترا وليست مصر هي التي قامت فعلا بفتح هذه البلاد - صحيح ان خزانة مصر تحملت الجزء الاكبر من عبء مصروفات الغزو وان القوات المصرية بقيادة الضباط البريطانيين ساهمت بجزء مشرف من مجهود الحملة - الا انه من الصحيح أيضا انه خلال فترة الاعداد وتنفيذ السياسة كانت القيادة الاعلى والطولى لبريطانيا ولذلك فانه من السخف الادعاء

(١) محمد عمر بشير - تاريخ الحركة الوطنية في السودان ص ٢٩ .

بأنه كان يمكن للحكومة المصرية إعادة فتح السودان دون مساعدة بريطانية بالرجال والمال والقيادة العامة ومن ثم فإن ضم الأراضي المستعمرة لـإنجلترا له ما يبرره إلى حد ما » .

وكان الخديوي عباس حلمي (٢) قد زار السودان وفي احتفال كبير أعد له في الخرطوم مساء ٤ ديسمبر ١٩٠١ ألقى كلمة قصيرة يرد فيها على كلمة ترحيب من الحاكم البريطاني وقائد الجيش المصري جاء فيها : - « .. العلمان الانجليزي والمصري اللذان يخفكان الواحد بجانب الآخر هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التي أخذت على عاتقها حماية الأهالي من الوقوع في شرك أهل الظلم والفساد وابتداء عصر هدوء وسعادة في هذه الديار » .

لم تعط الاتفاقية بريطانيا حق مشاركة مصر في حكم السودان بل أعطتها كل الوصاية على السودان فانفردت بحكمة واعترفت لمصر بحق اسمي في السيادة على السودان . وهكذا أصبح كل وادي النيل مصر والسودان في قبضة بريطانيا تحكمه عن طريق المعتمد البريطاني في مصر والذي كان حاكم السودان البريطاني مسئولاً لديه . . . » .

وانتقل الجيش المصري بكامل هيئته إلى السودان وقائده العام هو حاكم السودان البريطاني واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٩٢٤م حيث اغتيل في مصر السير لي ستاك حاكم السودان وقائد الجيش المصري وتحركت بريطانيا لتتملى على مصر شروطاً قاسية على رأسها طرد الجيش المصري والمصريين من السودان .

عكفت الإدارة البريطانية الاستعمارية تبنى أجهزتها وكان على رأسها حاكم بريطاني منحه الاتفاقية سلطات مطلقة في حكم البلاد يعاونه شلة من البريطانيين في كل المراكز الكبرى ويعمل تحت أمرتهم ضباط وموظفون مصريون .

كانت الإدارة الاستعمارية تعلم عام اليقين أن البلاد التي ستحكمها ذات نزعة دينية شديدة وفجرت ثورة فريدة في التاريخ الحديث ووقف أهلها يبائعون المهدي قائد الثورة على ترك الدنيا للآخرة وأقاموا حكماً ثيوقراطياً مدة ثلاثة عشر عاماً ولذلك كانت حذرته كل الحذر ألا تقع

(٢) نديم شقير - جغرافية وتاريخ السودان - بيروت ص ١٣٢٨ .

فيما يمس عواطف الناس ومشاعرهم الدينية ولكنها كانت تضرب بكل قسوة أى تجمع دينى ينهض مناوئاً لهم .

لقد أثبتت الإدارة الاستعمارية لتقييم دولة علمانية بدلا من الدولة البشيوقراطية التي كانت قائمة آنذاك فُلجأت الى سن القوانين المدنية وإقامة المحاكم المدنية الى جانب المحاكم الشرعية التي تختص في نصر قضايا الأحوال الشخصية .

وفي التعليم تركت الخلاوى والزوايا الدينية كما هي وفتحت المدارس النظامية ليدرس فيها التلاميذ المواد العلمية كالحساب والجغرافيا والتاريخ والمعلومات العامة مع قليل من سور القرآن والمعلوم الدينية لتصبح غلبة التعليم العلماني على الديني هو أساس التعليم في السودان فقد كان اللورد كرومر صاحب القبضة الحديدية على وادى النيل آنذاك يخشى ان ذلك النوع من التعليم الذي كان يقوم أساسا على دراسة القرآن من شأنه أن (١) يثير الحماس الديني .

استعانت الإدارة البريطانية في السودان في مجال القوانين بخبرتها وتجاربها في الهند وبنظام التعليم بما كان يجسرى في مصر وتركزت مهام التدريس والقضاء الشرعى للمصريين كما كونت لجنة استشارية من علماء السودان لتتقدم لها النصح في كل ما يتعلق بالشئون الدينية والتعليم الديني في البلاد وهنا في مجال التدريس والقضاء الشرعى يتجلى أثر العلماء المصريين من متخرجي الأزهر ودورهم المحدود المقدر في وضع أسس النهضة العلمية في البلاد وكذلك دور رفقاتهم من العلماء السودانيين في اللجنة الاستشارية التي كونها الحاكم البريطاني كما نرى في الفصول القادمة ونبدأ بكلية غردون التذكارية وهي المؤسسة التعليمية الرئيسية التي تخرج فيها قادة السودان فيما بعد .

كلية غردون التذكارية :

كان كشمس قائد حملة الغزو وسردار (القائد العام) الجيش المصرى قد توجه للشعب البريطانى لانشاء كلية علمية تحمل اسم

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم في السودان من ٦٥ -

الجنرال البريطاني غردون الذي كان يحكم السودان باسم الخديوى تخليداً له كأحد بناء الامبراطورية البريطانية وكشهيد ضحى بدمه من أجل بريطانيا اذ قتله ثوار السودان فى الخرطوم فى صبيحة ٢٦ يناير ١٨٨٥ وتوالت التبرعات من شتى الأصقاع ووضع اللورد كرومر معتمد بريطانيا فى مصر وحاكمها الفعلى حجر أساس الكلية فى الخرطوم باسم الملكة فكتوريا فى يناير ١٩٠٠ وافتتح مبانيها اللورد كتشستر رسمياً عام ١٩٠٢ وأطلق عليها كلية غردون التذكارية وتمنى أن يتركز عليها التعليم النظامى فى السودان الذى من شأنه أن يلبي حاجات السودانيين تحت اشراف بريطانيين لخلق طبقة منهم ترتبط فكريا ببريطانيا كما كان يرى أن قيام هذه الكلية سيعطى بريطانيا المركز الأول فى أفريقيا كقوة حضارية .

كذلك أفصح اللورد سالسيورى رئيس وزراء بريطانيا آنذاك فى الاجتماع الكبير الذى عقد لاختيار لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ مشروع الكلية بقوله :

« ان هذا المشروع فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية فهو محاولة لازالة ما بين الشعوب من حواجز واقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الانسانية » .

وهكذا اكتملت لبريطانيا فى السودان كل مقومات الحكم وقيام ادارة حديثة قوانينها مستمدة من قوانين الهند ذرة الناج البريطانى كما كانوا يطلقون عليها كما وضعت أسس التعليم فى خدمة النظام وكان على رأس الادارة نخبة متمرسه من الضباط البريطانيين فى أول الأمر استبدلوا بأخرين مدنيين فيما بعد .

غير ان الارتباط التاريخى الأبدى والروحى الذى يربط السودان ومصر كان له أثر أكبر وأقوى من تلك المخططات والنوايا فعامل اللقمة العربية والدين والتاريخ المشترك جعل من الشعبين أخوة وذوى قرى هذا فضلاً عن ان الشعبين كانا يقعان تحت وطأة الحكم الاستعمارى البريطانى ولذلك فان كل محاولات بريطانيا وسياستها التى كانت تقوم على أساس التفرقة بين السودان ومصر قد باءت بالفشل التام .

لقد استأثرت بريطانيا بكل شئ فى حكمها السودان فشغل البريطانيون كل الوظائف الكبرى وتركزت لمصر وظائف المأمير الذين يعملون

تحت امرة رؤساء بريطانيين وكذلك القضاء الشرعي وتدريس اللغة العربية والدين في المدارس النظامية وكلية غردون بالذات .

وكان من حسن التوفيق ان الامام محمد عبده ذلك المصنح الديني والوطني الكبير قد عاد الى مصر من منفاه عام ١٨٨٩ بعد اشتراكه في الثورة العربية وعين مفتيا للديار المصرية وقد اعتمدت عليه الادارة الاجنبية في السودان لاختيار قضاء الشرع والمعلمين المصريين للسودان .

وتقتضي الأمانة التاريخية ان أنقل ماكتبه (١) اللورد كرومر في كتابه مصر الحديثة عن الامام محمد عبده مقارنة به مع آخرين من علماء مصر آنذاك .

« كان الشيخ محمد عبده عالما من نوع آخر واني لأضيف نوعا متميزا عن زملائه الذين وصفتهم آنفا . كان الشيخ محمد عبده أحد القوى القائدة في حركة عرابي وعندما آتيت الى مصر عام ١٨٨٢ م كان في محنة ومشلوم الصيت ولكن توفيقا ذا الطبع السمج عفا عنه أثر ضغط بريطانيا فعين قاضيا وادى مهمته تلك باقتدار ونزاهة . كان الشيخ محمد عبده صاحب أفكار عريضة متنوره وكان يعترف بالتجاوزات التي نشأت في ظل الحكومات الشرقية وكان يدرك ضرورة المساعدة الأوروبية لعملية الإصلاح بيد أنه لم يكن لينتمى لذلك النوع من المصريين المتفرنجين الذين كان يرى فيهم صورة سيئة للأصل . كان ضد الحديوي وضد الباشوات وليس معنى هذا أنه كان يعترض على رتبة الباشوية ولكنه من خلال تجربته لم يلتق الا بعدد ضئيل من الباشوات الكرام أصلا وفي الواقع كان الشيخ محمد عبده خياليا وغير عملي ولكنه كان وطنيسا مصريا قحدا وربما كان من مصالحة القضية الوطنية المصرية اذا توفر عدد من أمثاله ... »

ثم يستطرد اللورد

« ان الأهمية السياسية لحياة الشيخ محمد عبده تكمن فيما يمكن وصفه بأنه مؤسس مدرسة فكرية في مصر شبيهة جدا بتلك التي أنشأها في الهند السيد أحمد خان مؤسس (٢) جامعة عليكره - ان الهدف المعلن لأولئك الذين ينتمون الى هذه المدرسة هو أن يبرروا طرق الاسلام للانسان أي للانسان المسلم وهم جيرونديو الحركة الوطنية المصرية وهم يروصمون

(١) لورد كرومر - مصر الحديثة جزء ٢ ص ١٨٠ / ١٨١ .

(٢) ومن روادها زعماء الهند من المسلمين الذين أنشأوا دولة الباكستان . اقبال ومحمد علي جناح وغيرهم .

كثيرا بتهمة الهرطقة لدرجة الاعتقاد بانهم يعجزون من ان يستوعبوا معهم
ولدى بعيد المسلم المحافظ. الأمين وفي الناحية الأخرى فهم ليسوا متفرجين
بالقدر الذي يشد اليهم تعاطف المقلدين المصريين للأسلوب الأوربي فهم
فيما يختص بسلامتهم دون المسلم الملتزم بالعقيدة كما وبالنسبة لتفريجهم
دون المصريين المغالين في التفرنج ولذلك تصبح مؤامرتهم بالغة الصعوبة
غير انهم يستحقون كل التشجيع والتأييد الممكن فمنهم الخلفاء الطبيعيون
للمصلح الأوربي *

ان الوطنيين المصريين سيجدون في نجاح مؤيدي محمد عبده الأمل
المرجو اذ يمكنهم أن يتغذوا شيئا فشيئا برنامجهم في خلق مصر المستقلة
ذاتيا حقا . *

وفي هامش نفس الصفحة يقول اللورد كرومر « كنت أمتح الشيخ
محمد عبده لعدة سنوات كل تأييد في مقدوري بيد أن ذلك كان عملا عسيرا
اذ انه فضلا عن الخصومة الشديدة التي كان يوجهها من المسلمين كان
أيضا لسوء الحظ في عدا مع الحديوي وقد استطاع أن يحتفظ بمنصبه
كفتى باستناده على التأييد البريطاني القوي . *

وفي تقاريرى السنوية تحدث مرارا عنه مشيدا به وليس هناك من
أسف يصدق على وفاته المبكرة أكثر منى . *

الامام محمد عبده وعلاقة قديمة بالسودان :

لم يكن الامام محمد عبده بعيدا عن الأحوال في السودان منذ ان كان
مع أستاذه الثائر الاسلامي جمال الدين الأفغاني يلهبان الشعور الديني
والوطني ضد الاستعمار البريطاني وكانا يكتبان في مجلة العروة الوثقى
التي كانا يصدرانها في باريس دفاعا عن الثائر محمد أحمد المهدي والثورة
السودانية ويروى أنهما كانا ينويان السفر سرا الى السودان لمساعدة
المهدي وتنظيم سير الثورة فيه . *

وفي تحقيق صحفي أجراه مندوب صحيفة بول مول (١) الانجليزية

(١) نشر الحديث في عددها الصادر يوم ١٧/٨/١٨٨٤ نقلا عن التريية في السودان
جزء ٢ ص ٩٧ للدكتور عبد العزيز عبد المجيد . *

مع الامام محمد عبده في أحد زياراته للندن وكانت الشروره المهدية في السودان في عنفوانها سأل مندوب الصحيفه الامام محمد عبده :

« اليس السودانيون قوما متعصبين ؟ » وكان رد الامام « ليس السودانيون أكثر تعصبا مني فحينما كنت أعلم الفلسفة في القاهرة كان الكثيرون من الطلاب المصريين يخشون حضور دروسى بينما كان هناك أربعة وثلاثون طالبا من السودان يحضرون جميعا ليستأصعوا الى . انهم ليسوا متعصبين » .

وكان مع الامام محمد عبده عدد من السودانيين يدرسون معه في مصر على جمال الدين الأفغانى في الأزهر متهم الشيخ البشير ود نعمة العالم السودانى المعروف فى رفاة على النيل الأزرق والذي كان نابغة فى الفلسفة .

ويروى ان الامام محمد عبده كان قد اقترح (١) على أستاذه جمال الدين الأفغانى فى باريس أن ينشأ مدرسة يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئة فى الأقطار الاسلامية ومن يتوسمان فيهم الخير ثم يربيانهم على منهج قويوم ويعيدانهم للزعامة والاصلاح وبعد عشر سنين تخرج المدرسة عددا من التلاميذ المستعدين لترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب ولكن الاقتراح لم يرق لجمال الدين فرفضه - ولما عاد الامام محمد عبده الى مصر من منفاه وأصبح مفتيا لمصر وجد الجو ملائما لتنفيذ رأيه ذلك وفعلا استطاعت مدرسة محمد عبده أن تفرض وجودها ونسهم مساهمة ايجابية بطريقة وأخرى فى الحركة الوطنية فيما بعد أى بعد وفاته عام ١٩٠٥ ومن تلك المدرسة على سبيل المثال محمد فريد وسعد زغلول وعدلى يكن وعلى شعراوى ولطفى السيد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ومنصور فهمى ومصطفى صادق الرافعى ومحمد شاكر ومصطفى المنفلوطى وعبد الوهاب النجار ومحمد الحضرى وكلهم لعبوا دورا مرموقا فى الحياة السياسية أو الاجتماعية فى مصر .

الامام محمد عبده واختيار علماء للسودان :

أما عن السودان فقد خصه الامام محمد عبده برعايته واهتمامه بعد

(١) محمد سعيد عبد المجيد (سعيد الافغانى) - نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغانى ص ٥٥ نقلا عن كتاب رشيد رضا لابراهيم العدوى ص ٦٩ سلسلة اعلام العرب .

أن أصبح مفتيا لمصر فاختار له المخلصين والناهبين من تلامذته أو من تأثروا به ليعملوا في سلك القضاء الشرعى والتدريس .

يقول السيد محمد رشيد رضا أحد تلاميذ الامام محمد عبده المقربين « كانت حكومة السودان تعتمد على الأستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما قاضى القضاء فيختار لها خير قضاة الشرع علما وأخلاقا وإدارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب القضية الأساتذة الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغى .

ومن حسن المصادفة أن هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضى القضاء في السودان كانوا على أتم المودة والصداقة ول بعضهم وشيعة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون من مريديه كالشيخ محمد الحضرى والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من خواص الأساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الإصلاح .

أما عن وظائف تدريس اللغة العربية والدين فقد تولاهما أساتذة ازهريون ما زالت ذكراهم العطرة خالدة للآن اختارهم الامام محمد عبده من خيرة تلاميذه منهم محمد الحضرى مدرس التاريخ الاسلامى وعبد الوهاب النجار الأديب واللغوى المعروف وقد اختيرا للتدريس فى الجامعة المصرية بعد عودتهما لمصر كما نذكر الشيخ محمد الجداوى العالم الأزهرى الذى ألف فى الفقه والميراث وفيهم العالم العلامة وحجة اللغة العربية الشيخ عبد الرؤوف سلام ومنهم الشيخ ماضى أبو العزائم المتصوف والمتخصص فى التفسير والحديث وغيرهم من رجال الأزهر الذين بلغوا قرابة الخمسين معلما وتخرج عليهم الرعيل الأول من السودانيين والذين كانوا قد حفظوا القرآن ودرسوا بعضا من أصول اللغة والأدب العربى فى خلاوى ومساجد مناطقهم .

لم ترض الارساليات المسيحية عن نشاط أولئك العلماء الازهرين والدور الذى قاموا به فى تدريس الطلاب السودانيين فى كلية غردون فقد نشر بحث فى مجلة الارساليات العالمية تقول فيه احسدى (١) الارساليات : -

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم فى السودان من ٩٢ تقلا عن بحث نشر بمجلة الارساليات ١٩٠٧ من الجنرال غردون والتعليم فى السودان .

« ان كلية غردون التذكارية بأسرها يجب القضاء عليها بوصفها كلية اسلامية لحما ودما من ناحية دينية ٠٠٠٠ ومن المؤكد ان اسم كلية غردون اسم على غير مسمى ولا يمكن الا أن يكون سبيلا لخداع الشعب المسيحي في بريطانيا العظمى وأن الجنرال غردون لم يخلد له ذكر في هذه الكلية بل خلد النبي محمد »

ولعل تسمية الكلية مدرسة محمد الروحية في أعالي النيل تكون انسب لأنها بكل تأكيد تقوم بتدريس الشريعة والقرآن أكثر من أي علم آخر ٠٠٠

واستطرد كاتب البحث يهاجم تعيين الأساتذة المصريين للمدارس النظامية وكلية غردون لأنهم من متخرجي الأزهر الذي يقول عنه أنه « معروف في جميع أرجاء العالم ليس بأنه أكبر معهد ديني وحسب بل من أعظم وأشد المعاهد الدينية تعصبا للإسلام » .

اختار الامام محمد عبده الشيخ محمد شاكر عام ١٩٠٠ ليكون أول قاض للقضاة في السودان وهو من تلاميذه ويعتبر من النخبة الممتازة التي تخرجت في الأزهر وبعد عودته لمصر من السودان عين وكيلا للأزهر وعضوا في هيئة كبار علماء مصر وقد قطع شوطا في طريق اصلاح الأزهر مترسما خطى الشيخ محمد عبده ثم أسكتت الحماية (١) البريطانية التي فرضت على مصر ابان الحرب العالمية الأولى صوت الاصلاح الذي كان ينادى به الشيخ شاكر حتى جهر به مرة أخرى فيما بعد الشيخ مصطفى المراغي الذي أصبح شيخا على الأزهر عام ١٩٢٨ - لقد ناصر الشيخ محمد شاكر الحركة الوطنية أيام سعد زغلول وله مؤلفات وبحوث عدة .

وللشيخ شاكر (٢) يعود الفضل في وضع أسس القضاء الشرعي في السودان فهو الذي وضع لائحة ترتيب المحاكم الشرعية التي تناولت بالتفصيل شروط اختيار القضاة والموظفين لهذه المحاكم واختصاصاتها وتقسيمها الى غير ذلك من المسائل التنظيمية كما وضع اللائحة النظامية للمحاكم وهي تتناول بعض المسائل الاجرائية التي تتعلق بالسير في الدعاوى ولائحة الرسوم وقد أدمجت لائحة الترتيب والنظام عندما تولى الشيخ مصطفى المراغي منصب قاضى القضاة . والشيخ محمد شاكر هو

(١) عبد الحليم الجندى سلسلة اعلام الاسلام الامام محمد عبده ص ١٦٩ .

(٢) د- خليفة بايكر الحسن - بحث عن الشريعة الاسلامية والنظام القانوني في السودان نشر في كتيب الاسلام في السودان .

الذى اقترح انشاء مدرسة القضاء الشرعى بكلية غردون والتي تخرج فيها انقضاة السودانيون واصبح عميدها العالم السوداني الشيخ هاشم أبو القاسم من متخرجى الأزهر واستمر الشيخ شاكر يخدم العلم فى السودان حتى بعد عودته الى مصر فقد استعان به وبآرائه الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء فى انشاء معهد علمى فى السودان على غرار الأزهر الشريف وظل علماء السودان يحفظون له هذه اليد حتى وفاتهم وقد اطلقوا على لائحة تنظيم معهد أم درمان العلمى لائحة الشيخ شاكر .

ثم اختار محمد عبده الشيخ مصطفى المراغى ليكون قاضيا فى مديرية دنقلا فى السودان عام ١٩٠٤ ثم أصبح قاضيا للقضاة منذ عام ١٩٠٨ الى ١٩١٩ ، والشيخ المراغى درس على الامام محمد عبده فنون الحكمة وقروع الفلسفة ويعد من أنجب وألصق تلاميذه به كما يعتبر الشيخ المراغى أحد قادة الاصلاح الدينى فى الأزهر .

كان للشيخ المراغى دور كبير فى تطور المعهد العلمى فى أم درمان فقد كان وثيق الصلة بالشيخ أبى القاسم مؤسس المعهد الذى استعان به مرارا فى كثير مما يهم المعهد فى طوره الأول وعندما ترك الشيخ المراغى السودان عائدا لمصر كان يتمثل بقول القائل : -

خليلى بالسوبة عوجا فلا أرى بها منزلا الا جديب المقيـد
تلقى برد نجد بعد ما لعبت بنا تهامة فى حوامها المتقـد

ولم تنقطع صلته بالسودان وعاملاته الى أن توفاه الله . كذلك كان لكل اصحاب النفيلة من العلماء المصريين الذين شغلوا منصب قاضى القضاة دور ملحوظ فى تطور المعهد وتقدمه منفل نشأته الى أن استقرى جامعة اسلامية .

وفى عام ١٩٠٥ زار الامام (١) محمد عبده السودان قبل وفاته بقليل ليرى بنفسه ويقت على مجهود تلاميذه من العلماء وما غرسوه فى نفوس الطلاب السودانين . فدخل فصول الدراسة فى كلية غردون وشهد طرفا من القضايا الشرعية فى المحاكم وأصدر بعض الفتاوى

(١) السيد محمد رشيد رضا - تاديب الشيخ محمد عبده .

واتصل ببعض علماء السودان وناقشهم وناقشوه وعاد الى مصر راضيا مرضيا حيث توفي في نفس العام .

وهكذا وضع الشيخ محمد عبده تقليدا سليما بأن يختار للسودان قضاة مصريين من علماء مصر النابهين من متخرجي الأزهر واستمر هذا التقليد معمولاً به قرابة نصف قرن الى عام ١٩٤٧ م حيث تولى اول سوداني من الذين درسوا على العلماء المصريين ذلك المنصب وهو الشيخ احمد الطاهر .

ونذكر من أولئك القضاة الشيخ محمد الأمين قراعة من أسرة قراعة المعروفة في مصر والذي أصبح عضوا في المحكمة الشرعية العليا في مصر بعد عودته من السودان . ومنهم الشيخ محمد نعمان الجارم وقد وضعه أحد العلماء السودانيين في قصيدة احتفاء بشقيقه على الجار عند زيارته عام ١٩٣٧ بقوله :

ومنه حفيظنا بأبي الفقه محمد الجارم نعمانه
أياس الدكاء شريح القضاء على البيان وسجانه

ومن القضاة المصريين الذين شغلوا منصب قاضي القضاة نذكر الشيخ حسن مأمون الذي أصبح شيخا للأزهر فيما بعد وقد أسهم في تطوير المعهد العلمي في أم درمان وفي إنشاء المعاهد الاقليمية في القطر .

لقد قدم أولئك القضاة الى السودان قدوم سمد وكانوا كلهم يؤدون رسالتهم باخلاص وصدق وأسهموا مساهمة تامة في وضع نظام القضاء الشرعي وترقيته في السودان باعتبارهم سلطة التشريع العليا في المحاكم الشرعية كما ساهموا في كثير من أوجه الحياة العلمية في البلاد .

تولى منصب قاضي القضاة في السودان من المصريين أصحاب القضيلة :

- الشيخ محمد شاكر من ١٩٠٠ الى ١٩٠٤
- » محمد هارون من ١٩٠٤ الى ١٩٠٨
- » مصطفى المراغي من ١٩٠٨ الى ١٩١٩
- » محمد أمين قراعة من ١٩١٩ الى ١٩٣٢
- » محمد نعمان الجارم من ١٩٣٢ الى ١٩٤٠
- » حسن مأمون من ١٩٤٠ الى ١٩٤٧ م .

« لقد حظيت كلية (١) غردون بنخبة ممتازة من الأساتذة المصريين الذين جمعوا بين الوطنية والعلم فشاركوا في تعليم السودانيين وادكاه الروح الوثابة المتطلعة الى العلم والحرية كانوا سنداً لحركة الوعي الوطني التي كان الطلبة السودانيون في كلية غردون من طلابها بما نالوا من معرفة فتحت أمامهم باب الأمل في التقدم والحاق بركب الأمم المتحضرة ولعل هؤلاء الأساتذة لم يحاضروا أولئك الطلبة في علم السياسة ولم يلقوا عليهم دروساً في الوطنية أو القومية ولم يحدثوهم عن مسألة تقرير المصير مباشرة في تلك الفترة المبكرة من الزمن ولكنهم دون شك اذكوا روحاً شابة وبعثوا عزيمة وزادوا نار الثورة ضد الاستعمار خطياً جعل الجذوة مشتعلة حمل المشعل فيها السودانيون وكان هؤلاء الأساتذة يصمدون عن شيء يجدونه في مصر منذ العقد الأول من هذا القرن وكان عدد هؤلاء الاساتذة كبيراً في الكلية فقصده بلغ خمسين مدرساً أو يزيه وكان أول ناظر لكلية غردون الأستاذ أحمد هدايت » .

لقد أصبحت كلية غردون صرحاً شامخاً ومنازة كبرى للعلم في السودان وأخذ طلابها يتهلون من الثقافة الغربية على أساتذة بريطانيين يخصصون في نفاثس الثقافة العربية وأدائها بفضل الأساتذة المصريين من متخرجي الأزهر الذين فتحو لهم تلك الآفاق وأخرجوهم من العزلة الفكرية التي كانوا يعانون منها في دراساتهم السابقة وعلموهم أن دعوة الاسلام لا تتعارض مع التعليم العلماني ومفاهيم الحياة العصرية وهذا هو جوهر تعاليم الامام محمد عبده كما كانوا. لهم القدوة الحسنة بما تحلوا به من صفات العلماء وما كانوا عليه من تفقه في العلم وسمو في الأخلاق فأحبوهم وأكرمهم وظلت ألسنتهم تلهج بشكرهم وفضلهم الى أن رحلوا عن الدنيا وخرج جيل من بعدهم مزوداً بالعلم ومتأثراً ومتفاعلاً بما كان يجري في مصر والعالم من نهضة فكرية وكان منهم قادة الحركة الوطنية الذين حققوا للبلاد استقلالها وسيادتها الوطنية ولم تكن كلية غردون اذاً كما أراد لها واضعوها ومؤسسوها من دعاة الاستعمار البريطاني وبناء الامبراطورية البريطانية مثل أخواتها في المؤسسات العلمية الأفريقية التي أنشئت لنفس الغرض وتخرج فيها فئة من المتعلمين الأفريقيين الذين ارتبطوا ببريطانيا وجنانيا وفكرياً واتخذوا من رجالها مثلاً أعلى .

(١) نقلاً عن الرابطة الثقافية بين مصر والسودان ص ١٠٧ للدكتور إبراهيم الحارثي .

• الأساتذة المصريون والنشاط الاجتماعي

لم يقصر أساتذة كلية غردون وكانوا أساس من المصريين الأزهريين رسالتهم في محيط التدريس والقضاء الشرعي بل قاموا بنشاط محمود في الحياة العامة بين المواطنين وقد برز ذلك النشاط بوجه خاص في الصحافة السودانية على صغرها ورغم ما كانت تفرضه الإدارة الأجنبية • من قيود ورقابة على مواد الصحيفة •

لقد كانت هناك مجلة الرائد التي أنشأها تاجر الغريقي عام ١٩١١م استجابة لرأي بعض متخرجي كلية غردون وكان يحرره الصحفي لبناني هو عبد الرحيم قليلات وكان يسهم في تحريرها (١) أساتذة كلية غردون وخاصة الشيخ عبد الرؤوف سلام المصري وفؤاد الخطيب السوري وكانا يدرسان الأدب العربي في كلية غردون •

كان هؤلاء الأساتذة يوجهون الصحافة نحو العالم الإسلامي تأكيداً لتبعية السودان للخلافة العثمانية كما كانوا يعملون لربط السودان بالعالم العربي بعد أن ظهرت أهداف السياسة البريطانية لمزول السودان عن العالم الإسلامي العربي ولذلك كانوا يشجعون الكتاب على السير في هذا الاتجاه ويفسحون المجال لمجاراة فحول الشعراء العرب وتشطير وتخمين قصائدهم وينتهزون أي فرصة مواتية لاستغلالها في هذا الاتجاه مثال ذلك عندما هبطت الطائرة التركية اذرميد أرض مصر عام ١٩١٤ وكان يقودها للمرة الأولى في تاريخ المسلمين شابان مسلمان من الترك - لقد كان هذا حدثاً هاماً في مصر

والسودان والبلاد الإسلامية آنذاك فأهابت صحيفة الرائد بإحياء
من هؤلاء الأساتذة بالشعراء السودانيين لتشطير بيتي شسوقي في
استقباله للطائرة وتخليداً لتلك المناسبة يقول شوقي :

يا أدرميد الأطيرى مبلغه
رسائل الشوق من عهرو إلى عهرو
إلى الذي خفقت في الأرض رايته
واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

وقد أسرع السودانيون للاستجابة للنداء مدفوعين بمقياسهم
الدينية ونظرتهم للسلطان العثماني كخليفة لكافة المسلمين مما توجب
طاعته تباروا في تشطير البيتين وغاز بالمرتبة الأولى الشيخ محمد عمر
البناء متخرج الأزهر بقوله :

« يا أدرميد الأطيرى مبلغه »
خليفة الله عنا أصدق الخبر
بلغيسه من الإسلام قاطبة
رسائل الشوق من عهرو إلى عهرو
إلى الذي خفقت في الأرض رايته
وعزتها سيوف الله بالظفر
مسدت على الأرض ظلالا تعادله
واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

وفاز بالمرتبة الثانية الأستاذ أحمد محمد صالح من الرعيل الأول من
متخرجي كلية غردون إذ يقول في تشطير البيتين :

((يا أدرميد الأطيرى مبلغه))
خليفة الله عنا أصدق الخبر
حييت سابعة في الجـو حاملة
((رسائل الشوق من عهرو إلى عهرو))
«إلى الذي خفقت في الأرض رايته
وها بها الخلق من بدو ومن حشر
أعلامه خفقت في المشرقين «عـا
«واليوم تخفق فوق الشمس والقمر»

وفاز بالمرتبة الثالثة الشيخ حسن عثمان بدرى وهو يقسول في
تشطيره :-

« يا أدوميد الأطسرى مبلغه »
روح ابن فرناس ما أوتيت من ظفر
ورفرى فوق نجم السعد حسامة
« رسائل الشوق من عمرو الى عمر »
« الى الذى خفقت فى الأرض رايته »
يحفها النصر من يدو ومن حضر
ناقت الى القبة الزرقاء فارتفعت
واليوم تحقق لفرق الشمس والقمر

وظلت « الرائد » تلتزم هذه السياسة والاتجاه وأخيرا لم يطق
صبر الادارة البريطانية فابتعدت رئيس تحريرها قليلا من السودان
وخلفه فى تحريرها أحد خريجي كلية غردون وهو الشيخ حسين
شريف الذى يعتبر بحق الصحفي السودانى الاول ثم توقفت عن الصدور
عام ١٩١٩ م لقد كانت الرائد ترسل قسبا من النور ادى الى وعى
سياسى وبداية للنهضة التى قادها الوطنيون فيما بعد وبنوا عليها
سودانهم الجديد .

وكما أفاد السودان من بقاء الاساتذة المصريين بين ظهرانيهم مرة
من الوقت نهلوا من فيض علمهم وتأثروا بأرائهم السياسية كذلك
كان لوجود الضباط المصريين أثر واضح أيضا فى غرس بذور النهضة
الوطنية فى السودان منذ أن انتقلوا الى السودان عام ١٨٩٨ م الى أن
أبعدوا عنه عام ١٩٤٢ م خاصة الذين كانوا يتعاطفون مع الحركة الوطنية
المصرية وكان منهم عدد كبير من أنصار الثورة العربية وأعضاء الحزب
الوطنى وتروى الوثائق السرية أن قيادة الحزب المصرى انتقلت للضباط
المصريين فى السودان بعد رحيل محمد فريد الى أوربا وكان من قادة
الحزب فى السودان البكباشى فطين والد الدكتور احمد فطين الطيب
المصرى المعروف وكان منهم الشاعر حافظ ابراهيم الذى قال عنه
رصيفه أحمد شوقي فى مراثيه له :

(٦) د- جعفر محمد على بخيت - الادارة البريطانية والحركة الوطنية من ٤٣ .

يا مانع السودان شرح شسبابه
ووليه في السلم والهجاء
لما نزلت على خمائله نوى
نبسع الييسان وراء نبسع النساء
قلدته السيف الحسام وزدته
قلما كصبر الصوة السمراء

وكان منهم محمد فتوح صديق البطل السوداني على عبداللطيف
رئيس جمعية اللواء الأبيض واحد قادة الحركة الوطنية في تاريخ
السودان الحديث .

وكان منهم حمدي سيف النصر الذي أصبح وزيرا للدفاع في
حكومات الوفد والذي لم تنقطع صلته بالسودان وكان يعتبر أبا (١)
للطلاب السودانيين في مصر . وكان منهم عبد الخالق حسن مأمور
أم درمان ، وقد توفى فيها فبكاه السودانيون قاطبة لفضله ومواقفه
الوطنية والإنسانية دفاعا عنهم ومؤازرة لهم وشيعت جنازته في موكب
ضخم انتهى بمظاهرة صاخبة كانت تهتف بحياة مصر وسقوط
الاستعمار البريطاني وكانت تلك المظاهرة بمثابة الشرارة للثورة الوطنية
عام ١٩٢٤ م .

وكان منهم اللواء محمد فاضل متخرج الأزهر وكان أدبيا وشاعرا
- ترك اللواء فاضل - أثرا محمودا في انعاش الحركة الأدبية والسياسية
في مدينة عطبرة في شمال السودان مقر عمله آنذاك في سلاح المهندسين
وعطبرة هي مدينة العمال والموظفين وهؤلاء هم الذين قامت على
أكتافهم أول حركة عمالية مرهوبة الجانب كما كانت أحد معاقل مؤتمر
الخريجين العام قائد الحركة الوطنية منذ الثلاثينات .

وعندما قام طلاب المدرسة الحربية السودانيون بمظاهرة حربية
في الخرطوم في أغسطس عام ١٩٢٤ وقدموا للمحاكمة وقف اللواء
فاضل مدافعا عنهم رغم ما كان يشيعه البريطانيون في جو رهيب .

لقد قامت في البلاد بطبيعة الحال حركة وطنية قوامها متخرجو
المدارس بما فيهم ضباط الجيش وكانت تتجاوب مع الثورة المصرية

(١) د . ابراهيم الحردلو - الرباط الثقافي بين مصر والسودان ص ١١١ .

فقامت الجمعيات السياسية وحفلت البلاد بمظاهرات في كل مدن السودان وبالذات في الخرطوم تهتف بسقوط الاستعمار وتنادى بوحدة مصر والسودان واعتقل قادة الحركة وعلى رأسهم المناضل الضابط السوداني علي عبد اللطيف . وفي ٩ أغسطس تحرك طلاب المدرسة الحربية في مظاهرة مسلحة نحو منزل علي عبد اللطيف الذي كان معتقلا آنذاك وأدوا التحية العسكرية على شرفة ثم جابوا شسوارع الخرطوم وانتهوا الى السجن حيث كان علي عبد اللطيف هناك وكانوا يهتفون بحياته وحياة مصر .

لقد كانت الادارة البريطانية تنظر بعين القلق والفرع من نشاط الموظفين والأساندة والضباط المصريين ونعاطفهم مع الوطنيين السودانيين وكانت تضع خططها لابعادهم جميعا من السودان وأتتها الفرصة مواتية حينما اغتيل السيرلي سستاك حاكم السودان البريطاني وقائد الجيش المصري في القاهرة في ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤ . فأملت بريطانيا شروطا قاسية على مصر وأهمها سحب الجيش المصري من السودان في خلال ٢٤ ساعة ثم أسرع اللورد الليني المندوب السامي البريطاني في مصر فابرق حاكم السودان البريطاني لتنفيذ أمر الجلاء ولكن القائم مقام احمد رفعت قائد سلاح المدفعية المصرية رفض الاستجابة للامسر وأصر أن يأتيه الأمر من ملك مصر .

وفي مساء ٢٧ نوفمبر عام ١٩٢٤ تحرك ستة ضباط سودانيين على رأس قوة قوامها ١٢٠ جنديا قاصدين الخرطوم بحسرى للانضمام لسلاح المدفعية المصري ولكنهم قبل أن يصلوا طوق الجيش البريطاني سلاح المدفعية المصري وفتح جسر النيل الأزرق ليحول دون اتصال القوة السودانية بالمدفعية المصرية وتصدت قوة من الجيش البريطاني لهم وكان يقودها الجنرال هدلستون الذي أصبح حاكم السودان مؤخرا في الأربعينات وطلب من الفرقة السودانية أن تعود أدراجها الى ثكناتها ولكنها رفضت الأمر والتحمت مع القوة البريطانية وأصلتها نارا حامية محتمية بالمستشفى العسكري ولم يستطع الجيش البريطاني أن يقضى على الفرقة السودانية الا بعد أن استعمل الأنوار الكاشفة لتسير للمدافع الثقيلة من ثكنات الجيش البريطاني . ولكن المقساتل السوداني كان يهتدى على مكان العدو من حيث أوهضت الأنوار الكاشفة فيقذف رصاصة عليه ويصيب من جنده مقتلا ولكن العدو ذك المستشفى العسكري ذكا ويموت تحت الأنقاض قائد الفرقة السودانية عبد الفضيل

الماط وسلم ما بقي منها بعد أن نفذت ذخيرتها وقد وصف الشاعر حسين منصور تلك اللحظة بقصيدة جاء فيها :

وقصف الجيش وقفلة ليس تنسى
وأجساد الوقسوف عند اللقاء
ضججك الموت بينه ساعة الجسر
وهيما «لوحيا بالقسماء
صائحا للامام صبيحة زهو
صائحا للسوراء في الأعين
فاذا أومضوا لكشف وميض
بسم الموت بسمه استهزاء
ورأى المستجلى الطريق اليهم
شاكرا أن هدوه بالأضواء
يالها ليلة ويسوما عبوسا
تركا الشعب ساخطا للسماء
يسال الله رحمة ومصيرا
كاملا في الحقوق حقي البقاء
عشاش أهل الجنوب أخوة مصر
في الفسحايا وعاش كل فدائي

وفي يوم ٢٨ نوفمبر وصل البكباشي أمين هيمس على طائرة جربية يحمل أوامر الملك فؤاد لقائد المدفعية بالانسحاب من السودان .

وفي ٥ ديسمبر نفذ حكم الاعدام بالقسرب من ثكنات الجيش البريطاني على الضباط حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد واستبدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد على الضباط علي البنا كما حكم غيايبا على الضابط السيد فرح بالاعدام إذ أنهم لم يعثروا عليه ، وكان قد سبج على النهر وسافر متنكرا الى مصر مع المدفعية المصرية .

وقد أشار لأولئك الشهداء الشاعر السوداني توفيق صالح جبريل في قصيدة أرسلها لصديقه توفيق البكري الذي هرع الى مصر قبيل حوادث ١٩٢٤ مع لفيف من الطلاب السودانيين ليتلقوا العلم هناك جاء فيها :

توفيق : أين بشير (١) ؟ قد ضحيتها
وفتحتمنا السودان خير كفساح

هاجرتمنا والأمن غير ميسر
بريوعنا والعلم غير متاح

لا تبتئس أن المساتم أن تسقس
متأملا لشبهة الأفسراح

أعلمتمنا ما كان بعدكما وما
فعلت بأهلينا يد السلفاح

أودى بأربعة (٢) صاور في الوشى
يا ويتهيم القوا صاور رماح

وهضوا بسر الختم (٣) بعد صفيه
رب اللواء الأبيض الوضاح

للسجن للتشريد لا جبريرة
ما اللود عن أوطانهم بجناح

أن خلد التاريخ ذكر بطولة
للعاملين فما لهم من ماحي

أما عن المعلمين المصريين والموظفين المدنيين الآخرين فقد أصدر
السكرتير الإداري البريطاني وكان بمثابة وزير الداخلية أمرا بطردهم
جميعا من الخدمة وإعادهم إلى مصر .

ولم يسمح للمعلمين المصريين الدخول للسودان إلا بموافقة سلطات
الأمن وبعد أن يكتبوا تعهدا للعمل في المدارس غير الحكومية وكان جل
أولئك المسجون لهم من المسيحيين المصريين .

لقد كان المعلمون المصريون لا سيما الأزهريون منهم كما وصفهم
أحمد (٤) المؤرخين السودانيين أعمدة التعليم في السودان .

(١) بشير هو بشير عبد الرحمن أحد الطلاب السودانيين الذي أتى مصر وتوفيق
البكرى والدودي أحمد اسماعيل لتلقي التعليم في مصر .

(٢) الأربعة هم الضباط الذين حكم عليهم بالإعدام بعد ملحتهم العسكرية في
نوفمبر ١٩٢٤ وفيهم الضابط الذي قاد الفلحة وقتل فيها .

(٣) سر الختم شقيق الشاعر ورب اللواء هو المناضل علي عبد اللطيف .

(٤) ضرار صالح ضرار - تاريخ السودان الحديث ص ٢٢٣ .

● التعليم الدينى

لجنة العلماء السودانيين :

فى عام ١٩٠١ أى بعد سنتين من اتفاقية الحـكم الثنائى بين بريطانيا ومصر عين الحاكم العام البريطانى لجنة من بعض علماء السودان تكون مهمتهم استشارية له كما ورد فى الخطاب أدناه الذى أرسـل لأعضاء اللجنة .

حضرة :

انه نظرا لما أحرزتموه من ثقتنا بكم ووثوقنا بعالميتكم وفضلكم قد ارتحنا الى انتخابكم لتكونوا عضوا للجنة الرئيسية لجماعة العلماء فى جامع أم درمان التى يكون من اختصاصها مباشرة تدريس العلم الشريف فى الجامع المذكور وللنظر فى تقرير من يصلح للتدريس بهذا الجامع وفى شئون الطلبة فيه وتكون أيضا موضع استشارتنا ورؤساء الحكومة السودانية فقط فى الشؤون الدينية وكل ما يختص بالعلم والعلماء دون أن تكون مكلفة بأن تبتكر النظر فى أى موضوع من تلقاء نفسها بل متى عرض عليها من قبلنا أو من أى رؤساء الحكومة أمر من هـذا القبيل كان عليها أن تحرر قرارها بما تراه وتقدمه لجهة الاقتضاء التى لها الخيار بموجب ما تقرره اللجنة وعلى اللجنة الا تهمل احاطة الحكومة السودانية علما بكل ما يحدث من الحوادث التى يهم الحكومة الاطلاع عليها دينية كانت أم علمية على السواء وبالأجمال بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء وطلاب العلم .

ولنا الأمل الوطيد في أن تقوموا بهذه المهمة التي عهدت إليكم
أحسن قيام يكون من نتائجها ترقية شأن العلم وطالبيه وصيانة الشعائر
الدينية فإن ذلك هو الغرض الذي ترمى إليه الحكومة الساعية فيما فيه
سعادة البلاد وأهلها .

تحريرا في الخرطوم في ١٣ يونيو ١٩٠١ م الموافق ٢٦ صفر ١٣١٩ هـ

ونجيت

سردار وحاكم السودان العام

وتكوين هذه اللجنة من علماء الاسلام في البلاد والاستعانة بها في
مهمتها التي انيطت بها يعيد الى الأذهان ما فعله محمد علي باشا حينما
أرسل ثلاثة من علماء الأزهر كل يمثل مذهباً من المذاهب الثلاثة المالكي
والشافعي والحنفي في مقدمة جيشه الذي غزا به السودان كما ذكرنا
من قبل .

كانت لجنة العلماء تلك التي عينها الحاكم العام تتكون من الشيخ
محمد البدوي رئيسا لها وقد ورد ذكره سابقا .

ومن أعضائها :

الشيخ النذير خالد :

وكان قاضيا للقضاة في آخر حكم المهدي (١٨٨٥ - ١٨٩٨ م)
وقد تلقى علومه على الشيخ الأمين العزيز كبير علماء السودان آنذاك
وعلى العالم الشيخ حسين المجدي الدمياطي متخرج الأزهر .

كان الشيخ أمين قراة قاضي القضاة المصري في السودان يزور
الشيخ النذير مرارا ويشهد بعضا من دروسه ويصر على الجلوس مسج
الطلاب ويروي أنه كان يقول « لم أر رجلا عالما مثل الشيخ النذير » .
اتصل بالامام محمد عبده عند زيارته للسودان وناقشه في كثير من
المسائل الفقهية .

الشيخ محمد عبد الماجد :

درس على عدد من العلماء فقد حفظ القرآن عسى أبيه الشيخ
عبد الماجد في سنار ومنهم العالم أحمد بن ابراهيم بن عيسى الأنصاري
وعن العلامة الشيخ محمد ود الجبيل العمراي اللذين ورد ذكرهما ومنهم

الشيخ عبد الله الخراساني من تلاميذ جمال الدين الأفغاني وكان الشيخ محمد بشوي السفر للأزهر ولكن ظروفًا عائلية حالت دون ذلك .

بنى الشيخ محمد عبد الماجد جامعًا في أم درمان وكان يدرس فيه العلم وتخرج عليه عدد كبير من علماء السودان ولم ينقطع عن التدريس أبداً إلى أن توفي عام ١٩٢٩ . كان يدرس شرح العلامة الدردير على مختصر خليل المالكي وكان يختمه للطلاب مرة كل سنة كما كان يدرس ألفية بن مالك في النحو من شرح بن عقيل ويعقبها أحياناً بشرح التلخيص والسمرقندية والجواهر المكنون في علم البيان وأحياناً يشرح جمع الجوامع في علم الأصول وبالتحديد في علم المتطق والكافي في علمي العروض والقوافي ويشرح نظم المقولات للعلامة السباعي وكان يدرس الرسالة بشرح أبي الحسن وتفسير الجلالين بحاشية الصاوي وكان أيضاً يدرس كتباً في فقه الشافعية والحنفية وغيرها واستمر جامعه هذا يتوافد عليه الطلاب إلى يومنا هذا وقد تولى بشوي التدريس فيه من بعده وخاصة ابنه العلامة الراحل الشيخ خليل .

الشيخ إبراهيم شريف الدولابي :

الذي سبق ذكره آنفاً .

الشيخ محمد الأمين الضرير :

وهو ابن الشيخ الأمين الضرير كبير علماء السودان في آخر فترة الحكم التركي درس الشيخ محمد علي العالم المصري الأزهرى الشيخ حسين المجدي الدمياطي في الخرطوم وعلى الشيخ محمد البدوي متخرج الأزهر وشيخ الاسلام في السودان وكان عالماً في الفقه والتفسير والنحو والبلاغة والميراث وكان كثير الشبه بوالده الشيخ الأمين الضرير ويقال إنه لو ولد في زمن مضي وعاصر فقهاء المدينة ل زاد عددهم به وقد وصفه أحد الشعراء (١) في قصيدة منها :

والى محمد انتهى علم الكتاب وكان في كل العلوم اماماً

وقد درس عليه عدد كثير من العلماء منهم ابنه الشيخ الأمين أستاذ

(١) إبراهيم عبد الرزاق شيخ الاسلام الفكي الأمين الضرير ص ٦٢ .

الشرية في الجامعة الإسلامية والقاضي يوسف إبراهيم النور أحد علماء
السودان الأفاضل .

الشيخ الباقر اسماعيل الوقي .

وقد تلقى تعليمه على والده الشيخ اسماعيل صاحب الأثر المحمود
في نشر العلم في غرب السودان وجبال النوبة .

كان كل واحد من هؤلاء العلماء يقيم معهدا في بيته للتدريس مثلما
كانت العادة الجارية في السودان منذ عدة قرون وقليل من العلماء من
كان يدرس في المسجد .

● المعهد العلمى بالسودان

رأت تلك اللجنة المختارة من العلماء أن ترسل بعوثا سودانية الى الأزهر لزيادة حصيلة الطلاب من العلم ليعودوا لبلادهم ويتولوا مهنة التدريس فيها غير أن الحاكم البريطانى والجنرال ونجت لم يكن راضيا على هذا الرأى اعتقادا منه بأن ذهاب السودانيين للأزهر وتلقيهم الدراسة هناك قد يجعلهم يتشربون بآراء وأفكار معادية للإدارة البريطانية فى السودان ولكنه مع ذلك كان يفضل إرسالهم الى الأزهر عسى أن يؤتى بعلماء مصريين من الأزهر للتدريس فى السودان وأخيرا اتفق على حل وسط وهو إعادة تنظيم وتطوير التعليم الدينى بجامعة أم درمان الكبير .

وبعد وفاة الشيخ محمد البدوى عام ١٩١١ م خلفه فى شياخسته العلماء الشيخ (١) أبو القاسم أحمد هاشم الذى درس فى الخرطوم على العالم الأزهرى المصرى الشيخ حسين المجدى الذى ورد ذكره مرارا آنفا . وعند قيام الثورة المهدية انتحق بها ثم عين كاتباً وكاتماً لأسرار قائدها المهدي والخليفة عبد الله من بعده .

وبعد سقوط دولة المهدية وقيام الحكم الثنائى على البلاد عين قاضيا شرعيا وزيادة على ذلك كان يعلم الناس ويدرسهم العلوم الاسلامية فى وقت فراغه وراحته . والشيخ أبو القاسم فضلا عن علمه الجهم كان أديبا وشاعرا يشار اليه بالبنان . كان أول عمل قام به الشيخ أبو القاسم

(١) عن تاريخ الشيخ أبى القاسم راجع النفايس فى أخبار وآثار شيخ الاسلام أبى القاسم أحمد هاشم لابنه عبد الحميد أبى القاسم .

فى منصبه الجديد شيخا للعلماء ان جمع أولئك الذين كانوا يقومون بالتدريس فى منازلهم أو فى مساجد متفرقة جمعهم فى جامع أم درمان الكبير ودعا طلاب العلم لأن يؤموه ويدرسوا فيه على أولئك المعلمين وأصبح يطلق عليه المعهد العلمى ثم استصدر لائحة لتنظيم الدراسة فيه مقتبسا لها من لائحة الأزهر الشريف ووضع منهج الدراسة على غرارها وبذلك قررت دراسة جميع العلوم التى تدرس فى الأزهر فى مختلف المراحل وقد استعان الشيخ أبو القاسم بالشيخ محمد شاكر الذى كان قاضيا لقضاة السودان (١٩٠٠ - ١٩٠٤ م) ثم عاد الى مصر وكيلا للأزهر .

كانت الادارة البريطانية فى السودان تحرم على السودانيين الذهاب الى مصر لتلقى العلم هناك كما لم تسمح لعلماء الأزهر من المصريين بالتدريس فى المعهد العلمى وقد ظل المعهد العلمى منذ انشائه عام ١٩١٢ مغلقا دون الأزهر بالرغم من إلحاح الشيخ أبى القاسم شيخ العلماء ومنشئ المعهد .

ثم خطا الشيخ أبو القاسم خطوة أخرى وهى انشاء مكتبة عربية للمعهد ولما لم تكن الادارة البريطانية توافق له بالاتصال مع مصر أو عز لابنه مدثر أبى القاسم الطالب بالأزهر آنذاك أن ينشر نداء مديلا باسمه يهيب بالمصريين خاصة وبالمسلمين عامة للمساهمة فى انشاء المكتبة . وفعلا نشر الطالب مدثر النداء باسمه فى مجلة المقطم وسرعان ما تدفقت الكتب النفيسة من الهيئات المصرية والأفراد الكرام . كانت أول دفعة منها ٨٢١ مجلدا بعثت به الجمعية الخيرية المصرية واستمر تدفق الكتب النفيسة للمعهد منذ ذلك الوقت حيث حفلت المكتبة اليوم بمئات المجلدات .

تخرجت أول دفعة من حملة الشهادة العالمية عام ١٩٢٤ فى عهد الشيخ أبى القاسم واستمر المعهد العلمى يؤدى رسالته العلمية رغم الصعوبات والمعوقات ويتخرج منه فوج أثر فوج . ثم أنشئت معاهد اقليمية فى أنحاء القطر بفضل همة شيخ المعهد آنذاك الشيخ أبى دقن وتعاون قضاة القضاء المصريون فيما بعد وخاصة الشيخ حسن مأمون . لقد بلغ عدد هذه المعاهد اليوم أكثر من مائة معهدا .

فى عام ١٩٣٦ بعث طلاب المعهد بذاكرة بطالبون فيها باصلاح المناهج الدراسية وارسال البعث الى الأزهر والاستعانة بمدربين

مصريين من الأزهر ليقوموا بمهمة التدريس فيه وبناء أروقة لهم لسكن الطلاب القادمين من الأقاليم ولكن مذكرتهم لم تلق استجابة من قبل السلطات مما دفع الطلاب للقيام باضراب عن الدراسة .

وعندما اشتد ساعد الحركة الوطنية أولى قادتها اهتماما خاصا بالتعليم وحظي التعليم الدينى والمعهد العالمى بتنصيب كبير من ذلك الاهتمام فقد كان المعهد العلمى فى نظر أولئك القادة مركزا اسلاميا كبيرا بل المؤسسة الدينية المركزية لكل القطر .

رفع مؤتمر الخريجين العمام وكان التنظيم السياسى الرئيسى فى البلاد مذكرة فى يوم ٢٦ أبريل عام ١٩٢٩ نادى فيها باصلاح المناهج ومنح الطلاب شهادة عالميه كشهادة الأزهر والاتصال المتين بالأزهر (١) الشريف وتشريد بيت لسكن الطلاب وقيام لجنة عليا لادارة المعهد وانخيرا اقترحت المذكرة الاتصال بالأزهر ليتولى ادارة المعهد والصرف عليه اذا لم تستطع الحكومة الاستجابة لتلك المطالب - كذلك تحرك طلاب المعهد ومشيوخه يؤيدون مذكرة المؤتمر كما بعث علماء السودان بمذكرة تشمل نفس المطالب تقريبا ولم يكن أمام الحكومة الا أن تهتم بتلك المذكرات فقبلت مبدئيا بعض ما جاء فيها كاعادة تنظيم المعهد وتعيين لجنة لادارته ومضاعفة الميزانية المخصصة له والاستعانة بمدرسين من الأزهر ولكنها رفضت اقتراح بناء بيت للطلاب كما رفضت رفضا باتا أن يكون المعهد العلمى تابعا للأزهر مثلما اقترحت مذكرة المؤتمر .

وفى عام ١٩٤٣ انتدب فضيلة الشيخ محمد المبارك عبد الله الأستاذ السودانى فى كليات الأزهر للعمل فى القسم العالمى بالمعهد ولعاونة شيخ علماء السودان على النهوض بالحركة التعليمية فيه . استمر الشيخ محمد المبارك يضطلع بمهمته فى مساعدة شيخ العلماء منتدبا من الأزهر الشريف منذ عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٥٣ وقد ظهر جليا أثر الشيخ المبارك فى تقدم المعهد العلمى ونهضته الحديثة .

وفى هذه الفترة من الزمن وعلى اثر مطالب الحركة الوطنية واهتمامها بشئون المعهد العلمى قدمت السودان فى أواخر عام ١٩٤٧ بعثة مصر مكونة من خمسة من أوائل الشهباسادات الأزهرية وخيرة مدرسيه للعمل بالتدريس فى المعهد العلمى . وكانت أول بعثة علمية

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم فى السودان ص ٢٨٦ .

للمعهد أى بعد أكثر من ثلاثين عاما من انشائه عام ١٩١٢ وانفتح الباب
الذى ظل مغلقا أمام أساتذة الأزهر للعمل فى السودان فتوالت عليه
بعوث الأزهر .

وفى عام ١٩٥٦ أعيد انتخاب الشيخ المبارك من الأزهر الى المعهد
العلمى شيخا للعلماء وفى عهد تطور المعهد وخطا خطوات واسعة
فى سبيل التقدم ويعتبر الشيخ المبارك الثانى اثنين من علماء السودان
اللذين لهما الفضل الأكبر فى تاريخ المعهد العلمى هذه المؤسسة الدينية
الكبرى هما الشيخ أبو القاسم مؤسس المعهد وواضع لبنته والشيخ
محمد المبارك عبد الله صاحب اصلاحه وتطوره وشموخته حتى أصبح
جامعة اسلامية كبرى .

لقد تولى مشيخة العلماء فى السودان أصحاب الفضيلة :

- الشيخ محمد البدوى من عام ١٩٠١ الى ١٩١١
- « أبو القاسم أحمد هاشم مؤسس المعهد من ١٩١٢ الى ١٩٣٢
- « أحمد محمد أبو دقن من ١٩٣٢ الى ١٩٣٨
- « أحمد الهاشمى دفع الله منتدبا بالانابة من ١٩٣٨ الى ١٩٤٣
- « أبو شامة عبد الحمود من ١٩٤٣ الى ١٩٥١
- « هاشم أبو القاسم من ١٩٥١ الى ١٩٥٥
- « الأمين محمد الأمين الضرير بالانابة من ١٩٥٥ الى ١٩٥٦
- « محمد المبارك عبد الله من ١٩٥٦ الى ١٩٦٣

وكلهم أما تخرجوا فى الأزهر كالشيخين محمد البدوى وهاشم
أبى القاسم ومحمد المبارك عبد الله أو ممن درسوا على متخرجين من
الأزهر كبقية الشيوخ الأفاضل - وجدير بالذكر كان شيخ العلماء هو
فى نفس الوقت شيخ المعهد العلمى .

وهكذا أخذ المعهد العلمى ذلك الطور الشامخ يحمل المشعل ويؤدى
رسالته العلمية ويتخرج فيه من نوابغ البلاد وعلمائها رجال تبوأوا
منزلة كبرى فيها وأسهموا فى نهضة الوطنية والثقافية كالأزهر تماما
وليس هذا هو المجال لاحصاء أولئك فمدرسو اللغة العربية والدين فى
المدارس الثانوية والكثير من مديريها وبعض القضاة الشرعيين وكتبة
المحاكم وغيرهم من خريجي المعهد .

وفى كل أطوار تقدم المعهد منذ انشائه كان لأصحاب الفضيلة العلماء المصريين الذين شغلوا منصب قاضي القضاة دور ملحوظ خاصة الشيوخ محمد شاكر ومصطفى المراعى وحسن مأمون وظلوا على اتصال به حتى بعد مغادرتهم البلاد اذ كانوا يقدمون له كل عون من هناك .

ومن هنا يتضح لنا جليا أثر الأزهر ومتخرجيه وبعوثه العلمية فى تقدم المعهد والحركة الدينية فى السودان واني لانقل بالحرف الواحد ما كتبه العالم (١) السودانى الأزهرى محمد المبارك عبد الله فى كتابه « مذكرات وذكريات فى معهد أم درمان العلمى - طالبا واستاذا وشيخا للعلماء » عن أثر البعوث الأزهرية فى نهضة المعهد .

... كانوا أهم العوامل فى نهضة المعهد الحديثة وتطويره الى جامعة أسهموا فى تعديل المناهج وطرق التدريس ونظام الامتحانات وادخلوا الأعمال التحريرية والتطبيقية وانعشوا المحاضرة والخطابة والانشاء وأقاد المعهد منهم خيرا كثيرا - وأقاد منهم شباب المدرسين الذين آخوهم وأحبوهم وتعاونوا على رفع مستوى الدراسة بالمعهد فضلا عن طلاب المعهد كما أقاد المجتمع السودانى منهم ثقافة عامة فى المعارف الاسلامية والعربية وتوجيهها وتوعية وتبصرة بالدين ومقاصده بما كان لهم من محاضرات وندوات فى الأندية وأحاديث ودروس فى الاجتماعات الخاصة وبما كان لهم فى الصحافة والاداعة من مقالات وكلمات ثم توالى البعوث بعدهم من الأزهر واتصل المعهد به اتصالا وثيقا » .

هذا ولم تقف رسالة المعهد العلمى على السودان وحسب بل وفد اليه طلاب العلم من كثير من البلاد الافريقية من الصومال ويوغندا والسنغال والسودان الغربى واثيوبيا وارتريا ودرسوا فيه وارتقوا من متاهله وعادوا الى بلادهم ينقلون علمهم وخبرتهم لأهلهم هناك وحقيقة كان السودان منذ القرن السادس عشر الميلادى قبلة لطلاب العلم فى جوامعه وخلويه من البلاد الأثريقية المجاورة .

(١) محمد المبارك عبد الله . مذكرات من ٥٠ .

● جامعة أم درمان الإسلامية

أخذ معهد أم درمان العلمى يسير خطوة الى الأمام تلو الأخرى منذ انشائه عام ١٩١٢ كما ذكرنا حتى اكتملت له مراحل الثلاثة - الابتدائية والثانوية والعالية وكان منذ انشائه يستوى الأزهري الشريف ويستمد من قبضته الشر فأصلح برامجه التعليمية وما قتبى يعمل على تطوير القسم العالى الى كليات للتخصص فى شتى فروع الثقافة الإسلامية فانشأ عام ١٩٥٧ قسمين ، أحدهما للشريعة الإسلامية وآخر للغة العربية مستعينا بأساتذة أجلاء من علماء الأزهري الشريف وما لبث القسم العالى أن تطور الى كلية إسلامية عام ١٩٦٣ م ثم ارتقى فأصبح جامعة إسلامية وقد حدد قانونها الصادر عام ١٩٧٠ م وظيفتها فى الآتى : (١) -

١ - تعمل الجامعة الإسلامية على بناء الذات السودانية بدراسة التراث العربى الإسلامى واثراء الحياة السودانية بمحتويات الحضارة العربية الإسلامية وتوظيف خصائصها لخدمة المجتمع السودانى وبدراسة اللغة العربية وعلومها .

٢ - تقوم الجامعة بتدريس الطلاب للقيام بأية واجبات تخصصية فى ميادين اللغة والدين والقانون والادارة وفى الدور الذى يخصه لها المجلس القومى .

(١) تسمى الجامعة الإسلامية -

٣ - تقوم الجامعة في اطار برامج الدولة بالبحث الاكاديمي والنظر في قضايا المجتمع من خلال المنطلقات الفكرية الاسلامية المتفاعلة مع احتياجات البيئة .

٤ - ترمي الجامعة في اطار خط الدولة حركة نشر وحياء التراث الاسلامي في القارة الافريقية وتقيم روابط التعاون مع مختلف المؤسسات النظرية في العالم الاسلامي .

وهكذا قامت جامعة ام درمان الاسلامية وكان للازهر واساتذته فضل واثرا لا يحمد وتحققت بذلك الامنية التي كانت تعمل في ضمير الامة والتي كان اول من نادى بها فضيلة الشيخ محمد الامين قراعة قاضي القضاة المصري على السودان (١٩١٩ - ١٩٣٢) منذ عام ١٩١١ في خطاب أرسله لفضيلة الشيخ أبي القاسم أحمد هاشم عندما عين شيخا لعلماء السودان وكانت تربطه به صداقة ومودة يقول الشيخ قراعة في خطابه :

« اهنئك بالمنصب الذي صادف اهله وكانى انظر اليك في مقبل الايام القريبة وقد انشأت بالسودان جامعة اسلامية على قرار الازهر الشريف تمت هذا البلد بعلماء شربوا من منهلك الملب الصافي وتعلوا باخلاقك أخلاق العلماء (١) » .

هذا وقد اختير الدكتور كامل الباقر اول مدير للجامعة الاسلامية وهو حفيد الشيخ اسماعيل الولي ومن أسرة درس اقطابها في الازهر كما ذكرنا وكان والده مدرسا في معهد ام درمان العلمي ، كما درس هو نفسه في ذلك المعهد وتخرج في كليات الازهر وواصل تعليمه في كليات بريطانيا حيث حصل على الدكتوراه - لقد وضع الدكتور كامل الباقر أسسها وتقاليدها ودفع بها قدما حتى أصبحت اليوم جامعة كبرى مثل مثيلاتها في السودان والبلاد الاخرى .

(١) عبد الحميد أبو القاسم - النفائس في اخبار وآثار شيخ الاسلام أبي القاسم أحمد هاشم .

● يد الأزهر البيضاء تمتد الى نيجيريا عبر السودان

العلماء السودانيون فى كانو

لم يقتصر أثر كلية غردون وفضل أساتذتها المصريين فى توجيه الطلاب السودانين توجيهها علميا صحيحا بانه ليس ثمة تعارض بين الدين والتعليم النظامي العلماني ولا على فتحها لآفاق جديدة نحو الثقافة الاسلامية ولم يقف ذلك الاثر على السودان بل امتد ليستظل بظله المسلمون فى نيجيريا .

كان هناك تشابه كبير بين السودان ونيجيريا فالمسلمون اغلبيّة فى كلا البلدين ويسكنون مناطق معروفة ثم كان البلدان يرزحان تحت سيطرة الحاكم البريطانى كما شسهد تاريخهما ثورات دينية جادة اتخذت طابع الجهاد باسم الدين ففى غرب افريقيا وشمال نيجيريا قامت ثورة الجهاد التى أعلنها عثمان ذاك فوديو وسلالته من بعده فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما نشبت ثورة مماثلة فى السودان بقيادة محمد أحمد المهدي فى آخر القرن التاسع عشر .

وعلى مر الأجيال كانت الصلة قوية بين السودان ونيجيريا وغرب افريقيا فقد كانت جموع الحجيج تأتى منها ميممة الاراضى المقدسة عبر السودان وكان منهم من أقام فى السودان كما كان بعض من العلماء السودانيّين من سنار يذهبون الى هنسالك بدعوة من سلاطينها وحكامها ليعلموا الناس تعليما دينيا ولذلك ظل السودان منذ تاريخه القديم الى

يومنا هذا أحد مجارى الثقافة الى غرب أفريقيا وكانت وما زالت الهجرة منه
واليه وغيره قائمة اما طلبا للعلم أو السفر الى الاراضى المقدسة وغيرها
من الأسباب .

وعندما وقعت نيجيريا تحت نير الحكم البريطانى قطع (١) الحكم
المستعمرون عهدا مع المسلمين فى نيجيريا على الا يتدخلوا فى شئونهم
الدينية وألا يسمحوا للتبشير المسيحى ليقوم بنشاط فى بلادهم خشية منهم
أن تنشب ثورات دينية أخرى وتتأثر مصالح بريطانيا الاستعمارية من
جرائها وكانوا قد طبقوا عليهم سياسة الحكم غير المباشر التى ابتدعها
اللورد فردريك لوقارد الذى كان حاكما عاما على نيجيريا .

ولمنا وبعد الاتفاق بين الإدارتين الاستعمارية فى السودان ونيجيريا
رؤى أن يستفاد من خبرة المعلمين والقضاة السودانيين الذين تخرجوا فى
كلية غردون فى اللغة العربية فارسلت أول بعثة من المعلمين وكانت تتكون
من السادة الأساتذة محمد عثمان ميرغنى وعبد العال حمور ومحمد نور سيد
أحمد وكان كل هؤلاء الأساتذة من الذين تلقوا علومهم على يد معلمين
مصريين متخرجين من الأزهر .

اضطلعت تلك البعثة بوضع أسس تعليم نظامى علمانى تدرس فيه
العلوم العصرية جنبا الى جنب مع دروس اللغة العربية والدين وكان
المواطنون هناك يدرسون علوما دينية فقط على أيدي مهاجرين أفريقيين
وعلى أسس بدائية .

عادت البعثة السودانية بعد أن أدت مهمتها بنجاح وقد شددت اليها
اهتمام السكان فى نيجيريا الذين طالبوا ببعثات أخرى . ثم ارسلت
بعثات قوامها قضاة شرعيون من السودان منذ عام ١٩٣٤ الى منتصف
الستينات .

كانت البعثة الأولى تتكون من أصحاب الفضيلة البشير الربيع
ومحمد صالح سوار الذهب والنور التنقارى وهؤلاء جميعهم من متخرجى
مدرسة القضاء الشرعى فى كلية غردون التى اقترح فكرتها فضيلة الشيخ
محمد شاكر قاضى القضاة المصرى (١٩٠٠ - ١٩٠٤) وقد درس هؤلاء

(١) د. حسين ابراهيم حسن . انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية ص ٢٥٤ نقلا
عن تاريخ نيجيريا لبيرنز .

القضاة على أساتذة مصريين من الأزهر هم الشيوخ الجداوى والشرقاوى
والمراغى أخو الشيخ مصطفى المراغى .

وتوالى بعثات القضاة الشرعيين الى شمال نيجيريا وظل الشيخ
البشير الربيع قطب رحاها منذ عام ١٩٣٤ . وثقة في تلك البعثات واعترافا
بفضلها اختير أحد أفرادها وهو الشيخ عوض محمد أحمد ليصبح قاض
لقضاة شمال نيجيريا .

لقد أدت تلك البعثات مهمتها بجد وإخلاص مما جعل سكان شمال
نيجيريا يلهجون بذكرهم والثناء عليهم مثل ما فعل السودانيون مع
أساتذتهم المصريين . كما ذكرنا في مجال آخر . لقد فتحو في مدينة
كانو مدرسة العلوم العربية تدرس فيها اللغة العربية والشريعة الإسلامية
والدين ليتخرج منها قضاة للمحاكم الشرعية ومدربين للغة العربية والدين
في المدارس الحكومية وأصبح بفضل تلك المدرسة كل قضاة شمال
نيجيريا ومدرسيها من خريجيها وأوقف تعيين المهاجرين والمعلمين
المحليين .

لقد أدى المعلمون والقضاة السودانيون الذين درسوا في كلية غردون
في الخرطوم على أيدي علماء مصريين من الأزهر نفس الدور الذي قام به
العلماء المصريون في السودان . وهو التوفيق بين الدين ومطالب الحياة
العصرية وهذا هو جوهر دعوة الإمام محمد عبده وغدت بذلك كانو عاصمة
نيجيريا مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا بعد أن تأهل
علمائها وتسلموا الأمانة بأنفسهم .

● احصائية عددية عن الطلاب السودانيين في الأزهر

أقبل الطلاب المسلمون على الأزهر باعتباره قبلتهم العلمية وكما
قال شوقي :

ان الذى جعل العتيق مثابه جعل الكنانى المبارك كوثرا
العلم فيه منساهلا ومجانيسا يأتى اليه النزاع يبغون القرى
يافتية المعمور سار حديثكم ندنا بالفواه الدروب وعنبوا

لا نعرف على وجه التحقيق تاريخ دخول السودانين للأزهر حيث
لا تتوفر أدنى معلومات عنهم وعن غيرهم من الطلاب الوافدين ولكنهم منذ أن
عرفوا طريق الأزهر وفدوا اليه وجارروه وكان مما شجع هؤلاء المجاورين
وأولئك من البلاد الإسلامية بناء أروقة أعدت لسكن الطلاب البعيدين من
القاهرة والوافدين من البلاد الأخرى . ولعل أقدم حديث عن أولئك
الطلاب وأروقتهم ما جاء فى خطط المقرئى فى القرن التاسع الهجرى -
الخامس عشر الميلادى ، فقد ذكر ان عدد الطلاب الفقراء الملازمين للمسجد
بلغوا فى عهده ٧٥٠ طالبا وهو هنا يشير فقط للفقراء الذين تضطرهم
ظروفهم للمجاورة فى الأزهر . ثم لا نجد أى معلومات عنهم الا ما ورد فى
كتاب الذيل للمقرئى تأليف عبد الحميد نافع فى القرن التاسع عشر
فى معرض ذكره عن الأروقة وعدد طلاب كل رواق والخبز المخصص لكل .

وعن السودان ذكر فى الذيل على المقرئى ان عدد طلابه ٨٥ طالبا
٥٠ طالبا فى رواق سنار و ٣٥ فى رواق الدكارنه ويقصد دارفور .

لم نستطع الحصول على احصائية كاملة بعدد الطلاب السودانيين في الأزهر منذ آمد بعيد فقد كانت حلقات الدراسة مفتوحة لكل طالب ولم تكن هناك سجلات تقيد عدد الطلاب والاحصائيات أدناه توضح عدد الطلاب السودانيين المقيدين في سنوات متفرقة وهي بالرغم من انها لا تحوى سجلا كاملا لعدددهم الا انها تلقى ضسوءا على كثرتهم مقارنة بالطلاب العرب من البلاد الأخرى .

في عام ١٩٤٣ بلغ عدد الطلاب المقبولين في (١) المدارس المصرية كالآتي :

٣٦ طالبا في الجامعة
٩٥ المدارس الثانوية
٤٦٣ الأزهر

٥٩٤ المجموع

وفي عام ١٩٤٥ أسست الحكومة المصرية بيتا لاقامة الطلاب السودانيين في القاهرة مع منحهم اعانات شهرية مما شجع الشباب السوداني للهجرة الى مصر طلبا للعلم وكان عددهم .

٢٩٨ في جامعتي فؤاد وفاروق (القاهرة والاسكندرية اليوم)
٢٥ المعاهد العليا
٤٦٦ الأزهر

٨٧٨ (٢) المجموع

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم في السودان ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٧ .

عدد الطلاب الوافدين
على الأزهر الشريف

من البلاد العربية والبلاد الأخرى

نسبة السودانيين	مجموع الوافدين	البلاد الأخرى	البلاد العربية	السودان	العام
٪٣٩ر٢٥	٢٥٤٨	٦٤٦	٩٠٢	١٠٠٠	٥٢/٥١
٪٤٥ر٦٥	٢٨٤٨	٦٤٦	٩٠٢	١٣٠٠	٥٣/٥٢
٪٥٩ر١٦	٤٠٨٢	٧٥٥	٩١٢	٢٤١٥	٥٤/٥٣
٪٥٦ر٨٩	٤٢٩١	٨٣٢	١٠١٨	٢٤٤١	٥٥/٥٤
٪٤٥ر٥٥	٣٢٩٣	٧٨٤	١٠٠٩	١٥٠٠	٥٦/٥٥
٪٤٨ر٨٣	٣٠٧٢	٨١٥	٧٥٧	١٥٠٠	٥٧/٥٦
٪٤١ر١٢	٢٥٢٧	٧٨٨	٦٢٤	١١١٥	٥٨/٥٧
٪٣٧ر٥٥	٢٧٨٨	١٠٠٦	٧٣٥	١٠٤٧	٥٩/٥٨
٪٣٥ر٩٧	٢٩٣٠	١٠٨٢	٧٩٤	١٠٥٤	٦٠/٥٩
٪٣٢ر٣٥	٣٠١٧	١١٨٧	٨٥٤	٩٧٦	٦١/٦٠
٪٢٧ر٥٣	٢٧٢٥	١٢٠٥	٧٨٧	٧٣٣	٦٢/٦١
٪٢٠ر٩٤	٢٨٨٤	١٤٤٤	٨٣٦	٦٠٤	٦٣/٦٢
٪١٨ر٣١	٣٦٢٦	١٩٦٨	٩٩٤	٦٦٤	٦٤/٦٣

ويلاحظ تناقص عدد الطلاب السودانيين منذ عام ٥٧/٥٦ إذ كان عددهم ١٥٠٠ إلى ٦٦٤ في عام ٦٤/٦٣ والسبب في ذلك تحويل بعضهم إلى المعاهد الدينية التي افتتحت في السودان آنذاك .

(١) الأزهر تاريخه وتطوره - الأوقاف - من ٥٧٤/٥٧٠

الطلاب السودانيون وغيرهم

جامعة الأزهر
عام ١٩٦٣/١٩٦٤
كلية الشريعة

المجموع	الفرق الدراسية				
	(٤)	(٣)	(٢)	(١)	
٧٦	٢٦	٢٧	١٩	٤	السودان
١٢٦	٢٦	١٦	٤٤	٤٠	الدول العربية
١١٣	٢٣	٣٤	٢١	٣٥	دول أخرى
٣١٥	٧٥	٧٧	٨٤	٧٩	

نسبة الطلاب السودانين لطلاب البلاد العربية = ٦٠٪

نسبة الطلاب السودانين لكل الطلاب الوافدين = ٢٤٪

كلية الدراسات العربية

٢٢٥	٥٨	٥٢	٧٢	٤٣	السودان
١٤١	١٤	٢٨	٤٨	٥١	الدول العربية
٢٨	٤	٢	٤	١٨	دول أخرى
٢٩٤	٧٦	٨٢	١٢٤	١١٢	

(١) الأزهر - تاريخه وتطوره - ص ٥٧٧ .

نسبة الطلاب السودانين لطلاب البلاد العربية = ١٥٩٥/١٠٠

نسبة الطلاب السودانين لكل الطلاب الوافدين = ٥٧/١٠٠

كلية أصول الدين

السودان	١٩	١٢	٥	١٦	٥٢
الدول العربية	١١	٣	٢	١	١٧
دول أخرى	٢١	١١	١٩	١٥	٦٦
	٥١	٢٦	٢٦	٣٢	١٣٥

نسبة الطلاب السودانين لطلاب البلاد العربية = ٣٠٥٨/١٠٠

نسبة الطلاب السودانين للطلاب الوافدين = ٣٨٥/١٠٠

بلغ عدد الطلاب السودانين في عام ٨٢/٨٣ في كليات الأزهر -
عندية ونظرية - ١٢٤٥ طالبا .

ومن الملاحظ ان عددا كبيرا من الطلاب السودانين تلقوا ويتلقون العلم في الأزهر منذ القدم والى يومنا هذا ولعله مما يلفت النظر النسبة الكبرى للطلاب السودانين بالمقارنة مع غيرهم من الطلاب فقد ظل الأزهر كعبة العلم يهاجر اليها الطلاب من السودانين وظلت مصر كطبيعتها دائما أبدا تفتح زراعيها خانية عطوف لهم ولغيرهم في أزهرها ومعاهدها العلمية .

هذا ويخصص الأزهر زيادة على ذلك متجا دراسية للطلاب السودانين من الجنوب وجبال النوبة وهي المناطق التي يغلب على أهلها الوثنية وقليل منهم المسيحية حيث تقوم الارشاليات المسيحية بنشاط وافر هناك .

والآن ينتظم الطلاب الوافدون بما فيهم السودانيون في الدراسة ويقيمون في مديسة انشئت خصيصا لاقامتهم وانتقالهم من الاروقه العتيقة ولا يخفى على القارئ الأثر الكبير الذي تحدثه هذه المدينة في لم شملهم وتعاونهم وتعارفهم في مجتمع علمي مثالي وبذلك تخدم غرضا اسمى وهو تدعيم الروابط بين الشعوب وتوثيقها .

أقبل الطلاب السودانيون في الأزهر على الدرس والتحصيل
بجهد واجتهاد منذ أن عرفوه والتحقوا به • ووصفت مجلة الوقائع المصرية بعض
الذين كانوا يترددون عليها فهم بأنهم غاية التهذيب والتجابه والاستقامة •
وكذلك ما جاء في الانجازات التي منحها لهم أساتذتهم من علماء الأزهر •
كما قال عنهم أستاذ مصرى (١) :

« والحق أنه كلما حدث أى اتصال بين أبناء السودان وغيرهم من
متقفي أبناء العرب كان الأولون سباقين للاستفادة والتعليم
هذا وقد تولى بعض منهم مهنة التدريس في الأزهر نذكر منهم على
مختلف العصور •

الشيخ محمد بن أحمد البدوى (٢) :

وهو حفيد الشيخ عيسى بن بشارة الانصارى الخزرجى عميد الأسرة
المعروفة في أرض الجزيرة في الاقليم الأوسط في السودان • كان الشيخ
محمد ووالده الشيخ أحمد البدوى يواصلان دراستهما معا في الأزهر على
علمائه ونذكر من أولئك العلماء الشيخ ابراهيم الباجورى الشافعى شيخ
الأزهر المتوفى عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م والشيخ أحمد جبل الحنفى
والشيخ عيش المالكى المتوفى ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م وقد منح الشيخ
محمد ووالده أجازات مشتركة من أساتذتهم ما عدا الشيخ عيش فقد
منح كلا منهما أجازة مستقلة •

وتدل هذه الأجازات ان الشيخ محمد ووالده تفقها في المذاهب
الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكى •

لقد عمل الشيخ محمد مدرسا في الأزهر وظل في وظيفته تلك نحو
ثمان سنوات حيث توفى في مصر •

ومن السودانيين الذين تولوا مهنة للتدريس في الأزهر الشيخان
أحمد الأزهري وابن أخته اسماعيل عبد القادر الكردفانى اللذين ورد
ذكرهما آنفا •

(١) د • عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان ج ٢ ص ٣٧ •
(٢) عز الدين الأمين - قرية لترايح وأثرها العلمى في السودان ص ٧٤ •

ومنهم الشيخ محمد نور الحسن :

ويعرف في الأزهر بالشيخ نور وهو من أسرة دينية معروفة في السودان نزح الى الأزهر في عام ١٩١٢ وأكمل تعليمه فيه وبرع أساسا في علوم اللغة العربية . وكان زميلا للشيخين شلتوت وعبد اللطيف دراز في الدراسة .

اختير مدرسا في الأزهر ثم وكيله كما كان عضوا في المجمع اللغوي وتوفي في مصر عام ١٩٧١ ودفن في مصر مع الشيخ شلتوت بناء على وصيته .

الشيخ محمد المبارك عبد الله :

ولد في أم درمان عام ١٩٠٥ وبعد ان حفظ القرآن في الخلوة في العاشرة والتحق بالمعهد العلمي في أم درمان ثم سافر الى مصر والتحق بالأزهر عام ١٩٢٣ على نحو ما ذكره في وصفه لرحلته الى مصر وحصل على شهادة التخصص القديم في عام ١٩٣١ وهي ما تعادل الدكتوراه .

عين مدرسا في الأزهر وانتدب الى السودان للتدريس في المعهد العلمي وكلية الدراسات الاسلامية على نحو ما ذكرنا سابقا .

● شعراء السودان يلهجون بذكر أساتذتهم المصريين

حفظ السودانيون ذلك الصنع والعمل الجليل في قلوبهم بكثير
من الامتنان وحفظ الجميل وتغني بذلك الفضل شعراؤهم وكتابهم واني
لأسوق مثلا لذلك العرفان بالجميل أبياتا من شعر بعض ممن درسوا على
أولئك الأساتذة .

يقول الاستاذ عبد الله عبد الرحمن في قصيدته « العروبة » مشيرا
الى أساتذته المصريين ذاكرا محاسنهم وفضلهم على بلاده وأثرهم الواضح
في رفعتها ونهضتها .

وكانت لنا في غابر الأمس نهضة
مباركة لا اللهو منها ولا الدد
فعبد الروف والخطيب كلاهما
له بيننا الفضل الذي ليس يجحد
هما حر كامنسا النفوس وانثرا
علوما على أضوائها اليوم نصعد
وظالمنا هزا النفوس بطيب
من القول يرغسا الوليد وأحمد
ولاحسا على الخرطوم نجم معارف
به وعوادى الدهر اذ ذاك تولد

وفي اليوم قد شابت وشب وليدها
وما ريسها منا كسير وامسرد
وذلك عهد قد سعدنا بفضله
لسوان الكريم الحر في الدهر يسعد
فأليت لا أنسى له فضل نعمة
عبي ولا حسبان مني موجود
أولئك الكتاب أساس نهضة
وكثر تمسين للتسافة يرفسد
هم العائشون في نفوس كثيرة
وفي كل قطر من صنائعهم بسد
تخيراتهم بين الأنام لفضله
وأكبرتهم أن كنت للناس أنقد

كما يقول في قصيدة أخرى .

يا نسيمًا يختسب بين رياض
راويًا عن أريجهن اغتسلاله
قف رويدًا واجمع الزهر واحمل
لرجال المعلوم مني رساله
لرجال المعلوم في أرض مصر
واهبي الضاد حسنًا والجزاله
قل لهدى الكرام يجمعها النادى
بسنورا ويختسبون هاله
لكم السود في البلاد مقيما
ما اظن الزمان يطوى ظلاله
انها مصر والمصرية والسودان
شعب أبى الاله انفصاله

وتقتطف أبياتا من قصيدة للشاعر السوداني عبد الله حسن
الكردي يتحدث فيها عن امر المصريين ويحث لقرينهم بعد ان ابعثوا
من السودان عام ١٩٢٤ م .

امسرامهم فسوق السسما مكانه
 وهم ميامين السورى اخيسار
 فى كل جسامعة لهم نشء سسما
 بذكاء فكر طار منه شرار
 وبكل حى للمعاهد ضجة
 فالعلم بين ربوعهم انهار
 انى يحسد الفضل من اوطانهم
 والفضل ليس له سواهم دار
 انى لاذكروهم بقلب واجسد
 مكار ليل او تلاء نهسا
 واحن مثل التاكسات لشربهم
 وحنين مثلى فى البعاد مزار

ويقول الاستاذ مجذوب جلال الدين وهو يستقبل الاديب المصرى
 الكبير على الجارم فى مايو عام ١٩٣٧ عند زيارته للسودان فى مهمة رسمية
 له تتعلق بانشاء كلية اللغة العربية فيه وكان البريطانيون قد أرادوا
 ان يعيدوا قدرا من العلاقات بين مصر والسودان بعد اتفاقية ١٩٣٦ .

اتيج الصيفا لاختصوانه
 فساد الشقيق لوطاناه
 ولافى الحب حبيبا وثنا
 نعيم السرور بلياناه
 وجاشت صدور بزفراتها
 وفاسخ الفؤاد بتحننانه
 اعلمت لنا ذكريات مضت
 لعند السرور واقصرانه

ولنفرد مجالا اوسع للاستاذ محمد سعيد العباسى الذى تغنى
 بفضل مصر وخرج بايديها عليه وعلى السودان وكان قد التحق بالأزهر
 ثم بالكلية الحربية فى مصر ودرس على العالم اللغوى عثمان زياتى وقد
 اهدى ديوان شعره لاستاذه ورد عليه الاستاذ زياتى بقوله :

« ولا ادري والله كيف اعتذارى عندك في تأخير الرد وقد طوقتني
بجملكم وشملتني بفضلكم اذ تذكركم استاذكم على طول العهد وبعد
الشقة وانى لاطيب نفسا ان اكون تلميذا لكم في حفظ الجميل ورعاية
الود والثبات على العهد ... وقد تفضلتم بارسال كثير من قصائدكم
التي يفوح منها عبير الاخلاص والتي يدل كل حرف فيها على شاعرية
مطبوعة تشير كل قافية الى ذوق جميل وكل شطر الى نفس كبيرة
وكل بيت الى مجد عامر وكل قصيدة الى حسن متبع من الاخلاق
العالية والخصال الرقيقة .. » .

ومن قصائده العديدة في حب مصر والتغنى بفضلها وفضل
اساتذته تقتطف بعضا من الأبيات :

واهيا مصر واوقسات سسيدات بها
لقد تقضت ولا اقض من ارب
يخونني الصبر ان غالبت دونكم
حر اشدياقي ودمعها جد منسكب
عندي لكم يسد فضل لست اجد لها
يسد الزناتي مولى العلم والحسب
سريت في ضسوته حينما يقوم من
عودي ويفسح لى من صدره الرحب
وفي قصيدة اخرى يقول :

ان يسورى عنكم فمما من
مذهب الحب والوفاء ان اورى
لو يكون الخيار حكما لا اخترت
نزوجا عنكم ولا قيسد شبر
ربى قدر مصر طالع اسعاد
وهي مصر اصلاح امر
ويقول في قصيدة اخرى :

بنو الكنانة ما اشهى الحديث لهم
الى النفوس وما اعلام قيما
زدنى سؤالا اذك اليوم معرفة
بهم فما كان ذو جهل بهم علما

هم الكرام فكم فيهم اخو ثقة
 حملوا الشمائل تنسدى كفه كرها
 بشوا المعارف بالسودان فازدهرت
 به وشادوا منار العدل فانتظمت
 ولا وربك ما كانوا لنا ابدا
 يقاسمون ولا كنا لهم خسدا
 عندي مصر وللغسر الكرام يد
 والحمر من بات يرعى العهد والذمما

ويقول في قصيدة أخرى :

اسغرى بين بهجة ورشاقة
 وأرينا يا مصر تلك الطلاقة
 أنت للقلب مستتراد وللعين
 جمال وللشمم بساقه
 أنت عندي أخت الحيفه
 ما أسماك دينا وما أجل اعتناقه
 أنت ذكرتنى ولست بناس
 در ندي رضى منك فواقه

وفي قصيدة أخرى يقول العباسي :

ولو كان لى علم ما فى غيد
 لما بعث مصر بسودانية
 ودعتها امس لا عين قسلى
 ولم تكن النفس بالسبالية
 لها ولا ينسائها الاكرمين
 اباد بنابرة اسليه
 بسروحي وليسيت تهاب الردى
 كبائعة دونها شاربه
 فاني من غرس نعمتها
 غراس هو الثمر الدانيه

وما بالقليل انتسبنا بي لها
 فساني حمادها السراوية
 بنى مصر حياكموا ذو الجلال
 بعرف تحياته الزاكية
 بيسكم غسدت اليوم أم اللغات
 كحسنته في حسل صافيه
 حملتم بمصر وبالششرقين
 وسالة آدابها العاليه
 بلوننا الكسرام فكانوا البناء
 وكنتهم به جسر الزاوية

ومن المناسب أن نذكر تطبيق الدكتور زكي مبارك تحت (١) عنوان
 جانبي « نعمة سودانية » مشيراً الى قصيدة العباسي التي أهداها
 إليه :

« كان من توفيق الله أن تلتفت الى الادب السوداني بعض
 الالتفات فيه أتيت لي فرصة للتعرف الى ما هناك من روائع لو
 نشرت لبهرت شعراء مصر والشام والعراق أقول هذا وأمامي قصيدة
 للشاعر محمد سعيد العباسي قصيده خفيفة الروح حن فيها الى
 أيامه في مصر فقال :

ولو كان لي عسل ما في غد
 لسا بعث مصر بسودانيه
 واسنم في سرد القصيدة كاملة حتى قول العباسي :

بلوننا الكسرام فكانوا البناء
 وكنتهم به جسر الزاوية

ثم استطرد الدكتور زكي مبارك « أيها الشاعر الذي حيا مصر
 حياك الله وحياك فقد طوقت جيد مصر بقلائد صنعت من حبات القلوب -
 أهذا شعر أم سحر ؟ - هو فرق الشعر وفرق السحر - هو الهام جاءت
 به فطرة كريمة الأصل في بلاد أبناؤها أصلاء .. »

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٨٢ عام ١٩٤٢ نقلت عن وثقات مع العباسي - عبد القادر
 الشيخ ادريس أبو. حالة ص ٢٠٥ .

وليعرف السودانيون اننا لا نقبل ان يكونوا اوفى منا باى حال
وسنعارض هذه القصيدة بقصائد وسنريهم ان مصر تجزيهم صدقا
يصدق واخلاصا باخلاص - آيتها الأرواح الشوارد بأعلى النيل أيها
الحافظون لامجاد الاسلام بالوادي السحيق هل تعرفون مكانكم في
أنفس المصريين .

وهناك ممن اشادوا بفضل مصر على السودان الأستاذ احمد
محمد صالح الشاعر والمربي الكبير في كثير من قصائده نذكر بعض
أبيات من إحدى قصائده :

مصر وما مصر سسوى
وطن القسساورة والأسسود
ومسارة الأدب الرفيع
وكعبسة العلم المفيد
وزعيمسة الشسشرق الفدى
فى الجهاد وفى الجهود
هى مؤئل للمستجير
ومنهمسسل عسنب السورود
وعسلى جسوب النيل كسم
قاضت اياديسا بسود
جئسسا وبسبن خسسلوعنا
شسوق العميسد الى العميسد

هذه قطوف مما جادت به قرائح بعض من شعراء السودان الذين
تلقوا العلم رأسا على معلمهم المصريين في اللغة والدين ولندكر جزءا
يسيرا من قصيدتين لشاعرين من الجيل الثاني الذي نشأ وتثقف على
سودانيين درسوا على اساتذة مصريين بعد ان ابعسسد المصريون من
السودان اثر حوادث عام ١٩٢٤ والشاعران من متخرجي المعهد العلمي
في أم درمان يقول التجاني يوسف بشير .

عادنى اليوم من حديثك يا مضرار
رئى وطسوفت بسى ذكسرى
وهقسا باسمك الفسؤاد ولجت
بسسمات عسلى الخسواظر سكرى
انما مصر والشقيق الاخ السسودان
كانا لخسافى النيل سسبنا

حفظنا مجسده القديم وشهادنا
 منه صبيتنا ورفضنا منه ذكرى
 افلسنا الفسى هوى جوفتنا
 سرحنا الفكر فى اواصر اخرى
 كيف يسا قومنا نباعد بين فكريين
 شمسنا وسماتنا البعض ازدا
 كيف قولوا بجانب الثيل شطيه
 ويحسرى على شواطئ اخرى
 كلمنا اتكروا ثقافة مصر
 كنت من صنعها يراعا وفكسرا
 جئت فى حصدنا عسرا فحيا
 الله مستودع الثقافة مصر
 نضر (١) الله وجهها فهى ما تزداد
 الا بمسدا على وعسرا

والإبيات الآتية من قصيدة الشاعر الناصر قريب الله يستقبل بها
 وفدا من الكنازة فى الثلاثينات بعد قطيعة فرضها الاستعمار البريطانى
 بين مصر والسودان .

قال الشاعر :

هسنه الامنيسات يساعين قرى
 واسكى الشلو يا براعة شعري
 فهنا الشعر يستمد قواه
 من جمال على ابتسامة نمر
 يسا شبيب الكنازة اليوم عيد
 عاد فى حلتى سرور وبشر
 عادنا والقلوب مسلاى اشتياقا
 ليم يدع شوقها مكانا لصبر
 فمساعيكم التى غمرتنا
 لم تعادل لى نساء يشكر

(١) كان الشاعر يتوى السفر الى مصر ولكن ظروفه ابعده عن تحقيق مطلبه .

جعلت حبنا الكساة فوصا
شبان كف الندى بقلب حر
وبعضر لنا قلوب اقيامت
انحسرونها بانحسباء مصر
لمصر والسودان صننو شقيق
وبذا النيل شاهد حيث يجري
فسير ان السودان عاش ربيبا
في حماها فنال اطيب ذخر
فاقطعوا السمن الكايد انا
اخوه في الهناء ومس الضسر
عصمة السدين وحيدتنا وما عن
عصمة السدين وحدها من معز

● هؤلاء قالوا عن أثر الأزهر على السودان

شعر العلماء :

— وفي العهد التركي ظهرت طبقة العلماء واخذت تلعب دورا هاما في الحياة الثقافية ، فقد شهد الحكم التركي نزوح افراد قلائل الى الأزهر او له . . . ولعل من المهم ان نلاحظ ان بداية الشعر العربي الفصيح في السودان كانت على يد هذه الفئة من العلماء الذين تلقوا تعليما دينيا ولفويا في الأزهر وقضوا فترة من حياتهم خارج السودان .

د . محمد ابراهيم الشوش

في الشعر الحديث في السودان صفحة (١٥)

— اما عمق الصلة بين سنار وعلماء الأزهر فأمر لا سبيل الى الجدل فيه فان اعظم علماء سنار تخرج في الأزهر الشريف .

محمد محمد علي

الشعر السوداني في المعارك السياسية

١٨٢١ - ١٩٢٤ م صفحة (٢٤)

— ولاهل السودان رغبة شديدة في تحصيل العلوم حتى لقد يقصد بعضهم الأزهر الشريف في مصر ويقضي السنين الطوال في تحصيلها وقد أنشئ لهم رواق في الأزهر منذ عهد طويل يعرف برواق

السناريين وكلهم عادوا الى السودان فانشأوا فيها مدارس للعلم .

نصيم شمسقير

جغرافيا وتاريخ السودان صفحة (١٦٨)

— فالمعهد التركي كان من اظلم العهود على السودان ثقافيا ولولا بيونات العلم والدين والافراد القلائل الذين شقوا طريقهم الى الازهر الشريف وحرصوا على تلك العلوم على ايدي بعض الاساتذة العائدين من الازهر الشريف لما بقى شيء من التراث العربى .

محمد احمد محجوب

الحركة الفكرية في السودان صفحة (١٢)

لقد ظل الازهر الشريف متاراً للوعى والاشماع لاولئك السذيين كان لديهم شعف وتعلق بدراسة قواعد الدين الحنيف والفقه الاسلامي اكثر من التعلق بالروحانيات وعلم الباطن والكشف ومن ثم فان من الخطأ الزعم بان السودان كان معزولاً عن العالم الخارجى او عن مصر بصفة خاصة .

محمد عمر بشمسير

— تاريخ الحركة الوطنية في السودان صفحة (١٥)

ولعل أول ما بدأ من علاقة ثقافية بين مصر والسودان بشكل واضح لا يخطئ كل مطلع على تاريخ هذه العلاقة كان في العهد السنارى من مملكة القونج الاسلامية منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى في هذا العهد نجد الوفود من السودانيين ترد مصر قاصدة موردها العذب ذلك هو الازهر الذى أصبح جامعة اسلامية فيسهلون من العلم ما أمكنتهم ظروفهم وما وسعت قدراتهم — ثم نجد وفوداً من العلماء المصريين يفسدون الى السودان على طول الطريق وبعده متجشمين الصعاب فيقيمون في السودان متخذين لهم تلاميذ ومعجبين من الدراسين يحيطون ويأخذون عنهم العلوم رطباً يأخذون عنهم معارف أخرى عن الحياة في مصر ولا بد ان هؤلاء العلماء كانوا يشجعون تلاميذهم على الهجرة الى مصر ليأخذوا العلم

من مصدره ويردوا الحوض الروى فى مكانه فلما هم الا سواقى على شاطئه
البحسر .

د ٠ ابراهيم الحارثي
الرباط الثقافي بين مصر والسودان
صفحة (٥)

الذى يهمنى قبل الدخول الى الطرق الصوفية ان نذكر ان اثر مصر
كان علميا اكثر منه صوفيا خالصا فكان من يذهب من السودان الى الازهر
يعود بحصيلة ممتازة من الفقه والتوحيد واللفة وكان من يهاجر من مصر
الى السودان فقيها قبل ان يكون متصوفا او فقيها متصوفا لا متصوفا فقيها
فى حين ان الطابع الصوفى كان يغلب على من جاءوا من المغرب او العراق
او الحجاز ...

الدكتور عبد القادر محمود
الطوائف الصوفية فى السودان
صفحة (٩)

دارفور :

كان الفور ولا يزالون من اكثر سكان السودان حماسا لدينهم وكانوا
فى تاريخهم الطويل اصلب المسلمين عودا امام هجمات الغزاة وضربات
الفاطحين ولم تلت قناتهم قط او تفتت عزائمهم ابدا بل كانوا دائما رجال
صبر وجهاد فى دين الله ودفاع عن حياض الوطن وكانوا قلعة حصينة
تفرق عليها راية الاسلام وانه من تقرير الحقيقة ان نذكر هنا ان دارفور
كانت دائما اول من يشور على الظلم والطغيان وآخر من يستسلم لجيوش
الفاطحين ويصدق ذلك فى جميع العهود دون استثناء ولكن لابد لهذا من
سبب - كل ذلك كان بفضل القيادة الرشيدة والترجيح المخلص الذى
كان يبذله علماء دارفور من خريجي الازهر وانتشار الوعي الدينى بين
طبقات العامة .

محبوب زيادة
الاسلام فى السودان صفحة (٨٧)

كان بعض السودانيين يذهبون الى الازهر ثم يعودون بعد تحصيل العلم ونلاحظ ان الأثر المصرى فى نشر الثقافة الاسلامية فى السودان قد يتميز بعض الشيء عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه ، أعنى ان الذين تأثروا بالثقافة المصرية فى ذلك العهد اتجهوا الى تعليم النحاس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم .

• عبد المجيد عابدين

تاريخ الثقافة العربية فى السودان صفححة (٥٩)

ولا تغفل فى مجال الحديث عن الحياة الفكرية فى هذا العصر ان نذكر متعلمى الازهر وخريجيه من السودانيين ومنهم من حصل على اعظم الاجازات العلمية .

عز الدين الأمين

تراث الشجر السودانى

صفحة (٤٤)

كذلك تطلع الفونج (حكام سنار) الى الازهر فكان الملك بادي الأول (١٦١١ - ١٦١٦ م) على صلة بعلماء الازهر وكان يرسل اليهم الهدايا والصلوات وكان السودانيون يلتحقون بالازهر ثم يعودون الى بلادهم يعلمون اللغة والتوحيد والفقه حتى لقد أصبحت مملكة سنار المركز العلمى لشرقى السودان وغربه .

• حسن ابراهيم حسن

انتشار الاسلام فى النارة الأفريقية صفححة (٢٢٩)

ان التعليم الدينى فى السودان وهذه الكلية قمته فى حصيلته وتفصيله وفى نشأته وإدراكه قبض من الازهر فالسودانيون أخذوا يعودون على الازهر يجددون العهد لمصادر معارفهم ويلتحقون بمركز الثقافة الاسلامية الشامخ الذى انتهت اليه عليها ليعودوا يعلمون العقائد والفقه والتفسير والحديث والعلوم العربية . فمنهم من كان المشاعل بعينه ان عادوا من شمال الوادى عملا بقوله تعالى : لولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

الآية ١٢٢ من سورة التوبة

ومنهم من أثر البقاء في القساورة ليقوم بالتدريس والتعليم بعد
ان تعلم . . .

ان كلية الدراسات العربية والاسلامية لن تنسى الفضل الذي
اوليتموها حين تفضلتم بالموافقة على اعارة صفوة مختارة من اساتذة جامعة
الازهر ومعاهده وحين تفضلتم فوافقتكم على منح طالباتها ست منح للدراسات
العليا بكلية البنات الاسلامية وهي ترجو دوام هذه الرعاية الكريمة ومواصلة
المدد في اعارة الجهابذة من علماء الأزهر ومنح نوابغ الخريجين فيها منحا
للدراستات العليا بجامعة الأزهر وستكون لزيارتكم هذه أعظم الأثر في
تقوية الروابط الثقافية الازلية الابدية ان شاء الله .

واذا كان النيل المبارك قد دأب يحمل في مسيرته من الجنوب الحبيب
والرخاء والحياة الى الشمال فقد دأب الشمال ممثلا بصفة خاصة في الأزهر
الشريف ان يجزى الجنوب ما يعادل الحياة من المعارف الانسانية السامية
والثقافية الاسلامية العالية .

لقد أشرق على السودانيين في مطلع هذا القرن وجه الامام الشيخ
محمد عبده وقد أخذ الاستعمار يحكم عليهم القيود المرهقة فأوحى اليهم
بالعزة الاسلامية وكانت زيارته شرارة الحركات التحريرية فيما بعد
فلتكن زيارتك الكريمة بعثا لروح الإصلاح الديني الذي عمل له وامتاز به
الامام محمد عبده ودعما لنهضة التعليم الديني في السودان وعونا على
احياء التراث الاسلامي والحفاظ على القيم الاسلامية .

من كلمة الأستاذ محمد المبارك غير الله .

شيخ علماء السودان ومدير كلية الدراسات العربية والاسلامية -
تحية للامام الأكبر محمد الفحام شيخ الأزهر الأسبق عند زيارته
للسودان .

خاتمة

في مستهل القرن السادس عشر للميلاد وعلى وجه التحديد عام ١٥٠٤ قامت في السودان دولة سنار وكان أصحابها يطلقون عليها السلطنة الزرقاء (١) كذلك سميت سلطنة الفونج الى الاسرة الحاكمة .

قامت دولة سنار بفضل تحالف القبائل العربية النازحة التي استوطنت السودان مع أسرة سودانية حاكمة كانت تقطن في الجزء الجنوبي الشرقي على حدود أثيوبيا ويزعم شيوخ تلك الاسر انهم ينتمون أصلا الى بني أمية تركوا ديارهم بعد سقوط دولتهم وقيام دولة بني العباس. واختلف المؤرخون في أصلهم هذا ولكن السائد صحة زعمهم بأنهم يرجعون الى بني أمية لقد قضى ذلك التحالف على الدولة المسيحية في السودان وأصبحت البلاد جميعها تدين بدين الدولة الجديدة وهو الاسلام والسودان الجنوبي بالطبع لا يدخل في هذا النطاق اذ لم يستكشف الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الجهد التركي على السودان .

لقد قامت دولة سنار الاسلامية قبل أقل من خمسة قرون وما يقرب من ألف عام من قيام الدولة - الاسلامية في مصر وهذا تاريخ حديث بالنسبة لدخول الاسلام في مصر أو أي بلد عربي آخر ولذلك يمكننا القول ان بلدنا حديث عهد بالاسلام .

(١) الزرقاء يقصد بها السوداء .

ظهرت الدولة السودانية الاسلامية الى حيز الوجود بعد ما حلت
بالعالم الاسلامي كوارث عدة على رأسها سقوط بغداد في المشرق وقرطبة
والاندلس في المغرب وبمسند ان تمزق الى دويلات ثم جثم الحكم التركي
العثماني على صدره وسعى سلاطين آل عثمان ليتولوا زعامة الامة الاسلامية
ويروى ان السلطان سليم القائد التركي بعد ان تم له فتح مصر قدم الى
سواكن وهم يغزو سنار (١) خاطب ملكها عمارة دونقس يدعوهم الى الطاعة
فرد عليه بما مفاده (اني لا اعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادى
فان كان لأجل تأييد الاسلام فاني وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين
بدين رسول الله وان كان لغرض مادي فاعلم ان أكثر مملكتي عرب بادية
وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية
سنوية) وأرسل له مع الكتاب انساب قبائل العرب الذين في مملكته جمعه
له الامام السمرقندي أحد علماء سنار ويقال ان السلطان سليم عدل
عن غزو سنار بعد ان وصله الكتاب والانساب وأخذها معه ولا تزال في
خزانة اسطنبول .

استمرت دولة سنار أكثر من ثلاثة قرون شهدت فيها وعاصرت
أحداثا جساما حيث انتقل مركز الثقل الحضاري الى أوروبا بعد عصر
النهضة وما صاحبه من تطور كبير في ميزان السياسة والثقافة والفكر
وتسلمت أوروبا مقود السياسة الدولية بعد ان ظل قرونا عند المسلمين .

ان تاريخ الثقافة العربية الاسلامية في بلادنا جزء لا يتجزأ من تاريخها
في البلاد العربية الاسلامية الاخرى ولعل من ابرز ظواهر الحضارة العربية
انها لم تنقطع بل ظلت تواصل سيرها على مدى عدة قرون في ثلاث قارات
آسيا وأفريقيا وأوروبا وفي تبادل ثقافي اسلامي متصل فكانت الكتب
تنسخ وتنتقل من المشرق الى المغرب والى السودان في أفريقيا وكان العلماء
والفقهاء ينتقلون من بلد عربي واسلامي لآخر يؤدون دورهم ورثة الانبياء
وينشرون العلم في كل بلد دخلوا اليها وكان المسلمون وهم مدفعون بتعاليم
القرآن وحديث الرسول صلعم يهاجرون من بلادهم طلبا للعلم كان الدرب
مطروحا وممهدا دون حواجز سياسية أو دينية أو لغوية من فارس والعراق
الى الشام ومصر والاندلس وأصبحت للثقافة الاسلامية وللغة العربية مكانتها
وسيادتها وأضحى الاسلام دين العقل ووسيلة لتوحيد تلك الشعوب

(١) نوم شقير - تاريخ وجغرافية السودان جبعة بيروت ص ٣٨٩ .

وائتلافها وأساس حضارة تقدمية نهل منها الغرب وتفتحت عيونهم ومداركهم عليها .

ازدهرت الثقافة الإسلامية في السودان بفضل هؤلاء العلماء الوافدين اليه من الأزهر أساسا والبلاد العربية الأخرى وبفضل العلماء السودانيين الذين تخرجوا في الأزهر وأنباعهم وتلامذتهم الذين أخذوا العلم منهم وأصبح السودان موئلا لكثير من العلماء والمواطنين العرب الذين تركوا ديارهم في المشرق لتعسف الحكام وفهرهم ومن المغرب خاصة تحت سيطرة المسيحيين الكاثوليك على الأندلس وتنكيلهم بالمسلمين وأجبارهم على اعتناق المسيحية وطرد ما يقرب من نصف المليون الذين أثروا أن يظلوا على دينهم وهاجر كثير من هؤلاء أولئك إلى البلاد العربية ومنها السودان ولقوا من المعاملة الكريمة وحسن الوفادة مما جعلهم يتخذونهم مستقرا لهم .

لقد شيدت في البلاد مساجد كبرى وخلوى وزوايا في الشبسال وأرض الجزيرة والنيل الأبيض يؤمها الطلاب وقد تفرغ أولئك الرواد من العلماء والفقهاء وانقطعوا لتعليم الناس وارشادهم وكانوا قد عرفوا علم الكلام والمنطق وأصول الفقه على مذهب مالك وبعضهم على مذهبى مالك والشافعى كما وقفوا على الكتب المتداولة لكبار العلماء الإسلاميين في زمانهم ومن سبقوهم كان الطالب يبدأ بحفظ القرآن أولا خطا جيدا مجودا ثم يتجه لدراسة علوم الفقه على مذهب مالك وعلم التوحيد واللغة العربية واللفظ العربية وأدبها بالإضافة إلى العلوم الأخرى كالرياضيات والفلك والتاريخ الإسلامى ومنهم من لم يكتف بذلك بل يذهب إلى مصر لينهل من أزهرها الشريف ثم يعود عالما مرموقا .

وكان العلماء يؤلفون الكتب في العقائد والشروح والخواشي وكانوا ينسخون الكتب الكبرى ويوزعونها لتعم الفائدة وقد لاحظ الرحالة السويسرى بيركهاردت الذى زار السودان عام ١٨١٣ أنهم ينسخون الكتب فى خط انيق لا يقل روعة عن المخطوطات التى رآها فى القاهرة غير أن كتبهم التى ألفوها أو نسخوها أو احتفظوا بها فى خزائنهم فقدت أما فى حملة الدختر دار الدموية المسعورة على طول البلاد وعرضها انتقاما لمقتل اسماعيل باشا قائد الجيش التركى الذى فتح البلاد عام ١٨٢٢ م وقمعا للثورة التى أشعلت البلاد ضد الحكم التركى الجديد حيث ترك الناس ديارهم وتفرقوا أبدى سببا أو بسبب تآكل الكتب وتلفها حتى أنت الثورة المهسدية (١٨٨٥ - ١٨٩٨) فقضت على البقية الباقية من الكتب واحرقت بأمر الامام المهسدى .

وحرق الكتب هذا ليس جديداً في التاريخ الاسلامي فقد أحسرق المالكية في اشبيلية والأندلس مكتبة ابن حزم الأندلسي في القرن العاشر للميلاد بل حتى احياء علوم الدين للغزالي أحرق في قرطبة .

لقد ظهر علماء سودانيون علاصيتهم في الداخل والخارج وقدمهم طلاب العلم من شرق أفريقيا وغربها ومنهم من ذهب الى غرب أفريقيا يعلم الناس هناك وأصبحت سنار مركزاً رئيسياً للعلم في أفريقيا وكانوا على اتصال مع وصفائهم في الأزهر يجادلونهم ويعرضون عليهم بعض القضايا التي يختلفون عليها .

لقد حفلت البلاد بحركة علمية عظيمة بلغت أوجها في القرن السابع عشر وكان الملوك والسلاطين يفتقون على العلماء ويجزلونهم العطساء ويستجيبون لكل مطلبهم وقامت تلك البيوتات الدينية بنشر العلم والثقافة الاسلامية القائمة على الكتاب والسنة تحافظ عليها هذا ومازال كثير من تلك البيوتات الدينية تضطلع بذلك الدور الى يومنا هذا ثم شهدت بلادنا علاقة أوثق بمصر بعد أن خضعت البلاد لحكم محمد علي وأسرته وأصبح الطريق الى الأزهر سهلاً مطروقاً وحل ببلادنا مصريون أزهريون منهم من حظى بالسفر الى أوروبا ضمن مبعوثي محمد علي باشا الى هناك ودخل ما يسمى بالتعليم النظامي الذي كان يحمل طابعا حضاريا وثقافة جديدة على أسس ما كان يجري في أوروبا وسار ذلك التعليم جتيا الى جنب مع التعليم الديني .

ثم قامت الثورة المهدية متاثرة بما كان يجري في العالم الاسلامي من ثورات ودعوة الى العودة الى منابع الاسلام الأولى ونظرة اجتهادية الى اقامة مجتمع اسلامي معاف وانخرط في صفوفها كثير من العلماء - السودانيون الذين تخرجوا في الأزهر وشغلوا فيها مناصب كبرى كما أيدها وساندها الامامان جمال الدين الافغاني - ومحمد عبده وعطف عليها كثير من علماء الأزهر وقتل في سبيلها والدعوة لها أحد علماء الأزهر الذي نفى الى الخرطوم بعد اشتراكه في الثورة العربية وهو العالم الأزهرى أحمد العوام ولكن الثورة المهدية لم تسر الى غايتها التي من أجلها قامت ولقيت نحبها أمام الاخطبوط الاستعماري البريطاني .

لقد أتى الحكم البريطاني على السودان بعد معركة كررى المعروفة في سبتمبر سنة ١٨٩٨ .

أتى يحمل معه ثقافتين متباينتين ثقافة هي نتاج الثورة الصناعية

الأوربية وأخذ يفرضها على الناس بطرق شتى فيها الترغيب وفيها الترغيب وثقافة شرقية دينية حملها الاساتذة المصريون على نحر ما ذكرنا وتعلق السودانيون في بادئ الأمر بثقافتهم الإسلامية الموروثة ولكن شيئا فشيئا وأثر السيطرة الأوربية على الدول المستعمرة وفرض لغة الحاكم سيطرت الثقافة الأوربية على مصر والبلاد العربية وكانت مصر دائما أبدا نافذة السودان للفكر والثقافة العالمية وخرجت المطابع تقذف كتبها ومؤلفاتها وتظهر في مصر مثقفون درسوا في الأزهر أساسا يعجبون بالثقافة الأوربية الجديدة كطه حسين وأحمد الزيات وزكي مبارك والمنفلوطي والكثير غيرهم وكان هناك الكاتب الكبير عباس محمود العقاد وتأثر جيل من السودانيين بهم وساروا في خطاهم مقلدين لا مجددين . وأقبلوا على انتهام الكتب الانجليزية والمترجمة من اللغات الأخرى ووجدوا بذلك موردا ثقافيا آخر غير ما ألفه آباؤهم .

ولعلني انتهز هذه الفرصة لأقول لكم بالحرف الواحد بعضا من مقدمة الأستاذ محمد فريد أبي حديد عام ١٩٤٨ لديوان الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي مما يوضح ثقافة السودان ولغته العربية الخالصة التي تلقاها عبر مجار محددة أولها وأساسها الأزهر الشريف .

يقول الأستاذ أبو حديد :

وكنيت قد رأيت نخبة من فضلاء أدباء السودان وقرأت لهم وسمعت منهم وكنيت في كل مرة أزداد إيمانا أن الصور التي تلمع في شعرهم تبعث عن فن أصيل ومن نبع فياض بل لقد ذهب بي الخاطر أحيانا إلى أن الملح في شاعر السودان أدبيا أبعد أصلا في العروبة من سائر الأدباء .

لقد سمعت في شعر السودان البدوي وفي أمازيجه الشعبية من صيغ الألفاظ ومن صور التعبير ما لا يتوفر إلا لقوم لهم لسان عربي أصيل من أرومة يندوية عريقة - لقد سمعت في السودان من شعراء الشعب قوما ينطقون لغة الناس بما لا يدركه في غير السودان إلا المتأدب المتوفر على دراسة اللغة فهو ينشد للناس بلغة عامية متحدنا عن الشبان والاسد والرحال والمشارب وما أظن عامة شعب عربي آخر تدرك لهذه الألفاظ معنى من ذلك ذهب بي الخاطر أحيانا إلى أن أهل السودان العربي إنما ينطقون بلسان قديم ويفتخرون العربية من أصل أصيل عبر البحر الأحمر .

ملاحق

الاجازات العلمية

الاجازة الاولى : (١)

منحها العالم السوداني الشيخ عبد الرحمن بن جابر الذي درس على الشيخ البنوفري في مصر لتلميذه الشيخ ابراهيم بن أم رابعة .

« . . . أما بعد فإن الأخ الفقيه الصالح المتأدب المتواضع الشيخ ابراهيم بن أم رابعة استحق السيادة والامامة عندي فجعلته قطبا في مكانه ولسانا في عصره وترجمانا في أوانه ومريسا للمريدين وقنوة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين مظهرا شمس المعارف بعد غروبها فأذنته في كل ما حقق نقله وسمعه مني ان يغشيه ويعلمه الناس مخلصا وقد أذنت له بأشعارها وأشهار ما فيها وتشجيع ما أشرنا اليه تاريخ اثنين وثمانين وتسعمائة من الهجرة النبوية (٢) »

الاجازة الثانية : (٣)

أجازها الشيخ على الاجهوري شيخ الاسلام ببصر ائذاك لطالبه الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم والد العالم السوداني المعروف الشيخ خوجلي وقد جاء في الاجازة .

« . . . أما بعد فقد قرأ على الشاب الفاضل والتحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبي ملاح الكباني نسيا والبري بلدا عقيدتي التي ألفتها في أصول الدين والتصوف وشرحها قراءة جيدة نافعة ان شاء الله وحضر قراءتي في مختصر العلامة الشيخ خليل في فقه المالكية في نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه

(١) ورد . ضيف الله - الطبقات - نسخة ابراهيم صديق ص ٣٣ .

(٢) الموافق ١٥٧٤م .

(٣) ورد . ضيف الله - الطبقات - نسخة ابراهيم صديق ص ١٦٦ .

بـالكتاب المذكور وقد استخرت الله واجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لـ
روايته بشرطه سائلا عنه ألا ينساني من الدعاء بسعادة الدارين والدعاء
بالرحمة لامواتنا وأموات المسلمين جعله الله من العلماء العاملين وفقه
لما يحبه ويرضاه في القول والعمل وجعله من عباده المخلصين ونفع بعلمه
المسلمين بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين
« - كتب في آخر ذي الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » (١) .

الاجازة الثالثة : (٢)

منحها الشيخ محمد عlish للشيخ أحمد البدوي وكان الشيخ عlish
شيخا على المالكية بالازهر . وقد ناصر الثورة العربية حيث مات سجيناً
عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م : يقول الشيخ عlish .

« ... قد من الله على بصحبة الشيخ المبارك أحمد بن الشيخ محمد
ابن الشيخ أحمد بن الشيخ عيسى السناري المشهورين بالعلم والصلاح
والبركة مدة عديدة وشاركتني في كتب عديدة في فنون من العلوم الشرعية
وآلاتها ولما أراد العود إلى وطنه الشمس مني الاجازة ظناً منه اني من أهل
ذلك وأنا متيقن اني لست ممن سلك تلك المسالك ولكن جبر خاطره
ورجاء بركته حملاني على اجابته فقلت أجرت أخى المذكور بما سمعه مني
وغيره مما اجازني به أشياخي ضاعف الله لهم الأجور موصياً له بملازمة
التقوى فانها للفلاح السبب الاقوى والا ينساني من صالح دعوائه في
جلواته وخلواته ضارعا للمولى الكريم ان يمن علينا بالخير العليم وان ينجينا
من الفتن والأهوال وان يصلح لنا ولاخواننا الأحوال وأن يختتم لنا بخاتمة
السعادة وأن يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة الذين دعواهم فيها سبحانه
اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » .

وقد حصل هذا العالم السوداني على اجازتين أخريين واحدة في
الفقه الشافعي من الشيخ ابراهيم الباجوري شيخ الازهر المتوفى عام
١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ والآخرى من الشيخ أحمد حليى الحنفى .

(١) المولى ١٦٢٢ م .

(٢) عز الدين الامين - فرية كنزناج واثرا العلي على السودان ص ٧٦ .

المراجع

اللغة العربية

- ١ - الاسلام والحضارة - محمد كرد علي
- ٢ - التمدن الاسلامي
الجزءين - الرابع والخامس - جرجي زيدان
مطابع مؤسسة دار الهلال
١٩٦٨
- ٣ - الازهر تاريخه وتطوره - وزارة الاوقاف المصرية
الاتحاد الاشتراكي العربي
دار مطابع الشعب
- ٤ - تاريخ الازهر في ألف عام - سنيه قراعه
مكتب الصحافة الدولي
يوليو ١٩٦٨
- ٥ - مصر الاسلامية - محمد عبد الله عنان
مطبعة لجنة التأليف
١٩٦٩ - الناشر
مكتبة الخانجي القاهرة
- ٦ - مصر في فجر الاسلام - سيده كاشف
- ٧ - تاريخ الجامع الازهر - محمد عبد الله عنان
- ٨ - كتاب الطبقات - للفقير محمد ضيف الله
نسخة ابراهيم صديق
المكتبة الثقافية
بيروت

- ٩ - كتاب الطبقات جامعة الخرطوم - للفقير محمد ضيف الله - تحقيق وتقديم د . يوسف فضل
دار الطباعة للتأليف والنشر
جامعة الخرطوم ١٩٧١
- ١٠ - تاريخ السلطنة السنارية - تقديم وتحقيق الشاطر بصيلي
والادارة المصرية - مخطوطة
أحمد بن علي كاتب الشونة
وزارة الثقافة والارشاد
المصري - ١٩٦١
- ١١ - جغرافية وتاريخ السودان - نعوم شقير
دار الثقافة - بيروت
- ١٢ - مشيخة العبدلاب - محمد محي الدين
- ١٣ - التربة في السودان - د . عبد العزيز عبد المجيد
ج (٢) و (٣) - المطبعة الاميرية
القاهرة - ١٩٤٩
- ١٤ - السودان في قرن - د . مكي شبيكه
- ١٥ - النداء في دفع الاقتراء - محمد عبد الرحيم
- ١٦ - السودان بين يدي - ابراهيم فوزي
غردون وكفتشتر
- ١٧ - تاريخ السودان الحديث - ضرار صالح ضرار
١٩٦٤
- ١٨ - تاريخ سودان وادي النيل - د . شوقي الجمل
ج (٢) مكتبة الانجلو المصرية
١٩٦٩
- ١٩ - حركة الترجمة في مصر في - جاك تاجر
القرن التاسع عشر
- ٢٠ - مناهج الالباب المصرية في مباهج الادارة العصرية - طبعة ثانية
١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م رفاعة رافع الطهطاوى
- ٢١ - تطور القضاء في السودان - حسين سيد أحمد المفتي

- ٢٢ - قرية كترانج وأثرها العلمي - عز الدين الامين
على السودان - دار الطباعة
جامعة الخرطوم - ١٣٩٥/١٩٧٥ م
- ٢٣ - جهاد في سبيل الله - اعداد عبد الله محمد احمد
الخرطوم ١٩٦٥
- ٢٤ - شيخ الاسلام - ابراهيم عبد الرزاق
الفكي الامين الضريير
مكتب النشر - الخرطوم
- ٢٥ - تفنات اليراع - محمد عبد الرحيم
- ٢٦ - وقفات مع العباسي - عبد القادر الشيخ ادريس
دار الفكر السودانية ١٩٧٠ (أبو هالة)
- ٢٧ - تطور التعليم في السودان - محمد عمر بشير
مترجم عن الانجليزية - دار الثقافة
بيروت - ١٩٧٠
- ٢٨ - تاريخ الثقافة العربية - د . عبد المجيد عابدين
في السودان - دار الثقافة
بيروت - ١٩٦٧
- ٢٩ - أصول الشعر السوداني - عبد الهادي الصديق
المجلس القومي لرعاية الآداب
والفنون - الخرطوم
- ٣٠ - التصوف الاسلامي - د . زكي مبارك
ج (١) و (٢) - المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
- ٣١ - الشعر الحديث في السودان - د . محمد ابراهيم الشوش
معهد الدراسات العربية -
جامعة الدول العربية ١٩٦٢
- ٣٢ - تراث الشعر السوداني - عز الدين الامين
معهد البحوث والدراسات العربية
جامعة الدول العربية ١٩٦٩

- ٣٣ - الشعر السوداني في المعارك السياسية - محمد محمد علي
١٨٢١ - ١٩٢٤ - مكتبة الكليات الأزهرية - مطبعة النهضة
القاهرة ١٩٦٩
- ٣٤ - تاريخ الحركة الوطنية في السودان - محمد عمر بشير
الدار السودانية للكتاب
١٩٧٨ - مترجم عن الانجليزية
- ٣٥ - نابغة الشرق - السيد جمال الدين الأفغاني - محمد سعيد
عبد المجيد دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (سعيد الأفغاني)
القاهرة - ١٩٦٧ م - ١٣٨٦ هـ
- ٣٦ - الامام محمد عبده - سلسلة اعلام الاسلام - عبد الحليم الجندي
دار المعارف
- ٣٧ - الاسلام في السودان - وزارة الشؤون الدينية
مكتبة الثقافة الاسلامية والاوقاف - جمهورية السودان
- ٣٨ - الادارة البريطانية والحركة - د . جعفر محمد علي بخيت
الوطنية في السودان
مترجم عن الانجليزية
دار الثقافة - بيروت - ٧٢
- ٣٩ - تاريخ الشيخ محمد عبده - السيد محمد رشيد رضا
- ٤٠ - الرباط الثقافي بين مصر والسودان - د . ابراهيم الحارثي
دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٧ -
- ٤١ - التفائس في أخبار وآثار - عبد الحميد أبو القاسم
شيخ الاسلام أبو القاسم أحمد هاشم
دار جامعة الخرطوم للنشر
مطبعة جامعة الخرطوم
- ٤٢ - مذكرات وذكريات - محمد المبارك عبد الله
مطبعة محمد علي صبيح ١٩٧٢
الجزء الاول

- ٤٣ - انتشار الاسلام في - د . حسن ابراهيم حسن
القارة الافريقية
مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣
- ٤٤ - الحركة الفكرية في السودان - محمد أحمد محبوب
- ٤٥ - الطوائف الصوفية في - د . عبد القادر محمود
السودان - مطبعة مصر (السودان)
١٣٩١ هـ - ١٩٧١
- ٤٦ - مع التعليم الديني في السودان - محمد المبارك عبد الله
الجزء الثالث - المجلس الاعلى
للمشئون الدينية والاداريات
الخرطوم - رجب ١٤٠٠ هـ - يونيو ١٩٨٠
- ٤٧ - دراسات في تاريخ السودان ج (١) - د . يوسف فضل
دار التأليف والترجمة والنشر -
جامعة الخرطوم - ١٩٧٥
- ٤٨ - مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في
العصور الوسطى - حققها وكتب حواشيها د . مصطفى محمد
مسعد
مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم
١٩٧٢
- ٤٩ - امتداد الاسلام والعروبة - د . مصطفى محمد مسعد
الى وادي النيل الاوسط - مستخرج من
مجلة الدراسات التاريخية - الجمعية المصرية العدد الثامن ١٩٥٩
- ٥٠ - اولاد جابر - د . سراجتم عثمان
- ٥١ - العربية في السودان - عبد الله عبد الرحمن
دار الكاتب اللبناني
بيروت ١٩٦٧
- ٥٢ - الاسلام في السودان - محبوب زياده
سلسلة اقرا -

- ٥٣ - سعادة المستهدى بسيرة -
المهدى - للشيخ اسماعيل عبد القادر د . محمد ابراهيم أبو سليم
الكردياني
- ٥٤ - جمهرة الاولياء ج (١) و (٢) - السيد محمود أبو الفيض
مؤسسة الحلبي وشركاه
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
- ٥٥ - عصر سلاطين الماليك - محمود رزق سليم
ونتاجه العلمي والأدبي - المجلد
الثالث - المطبعة النموذجية
الحلمية الجديدة ١٩٤٩ - الناشر
مكتبة الآداب بالجاميز
- ٥٦ - ديوان توفيق صالح جبريل
- ٥٧ - الشعر القومي في السودان - د . عز الدين اسماعيل
دار العودة - بيروت
- ٥٨ - الدعوة الى الاسلام -
سير توماس ازنولد
مكتبة النهضة المصرية
١٩٧٠ واسماعيل النجراوى
- ٥٩ - البيان - مجلة ثقافية
العدد العاشر ١٩٧٨
وزارة الشؤون الدينية
والاوقاف السودانية
عدد خاص عن القرآن الكريم
- ٦٠ - صانعو التاريخ العربى -
فيليب حتى - دار الثقافة -
بيروت ١٩٦٩
- ٦١ - مملكة الفرنج الاسلامية - د . مكي شببيك
معهد الدراسات العربية
جامعة الدول العربية
١٩٦٣ / ١٩٦٤

- ٦٢ - تاريخ اللغة العربية في مصر - د . أحمد مختار عمر
الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
- ٦٣ - السلالات العربية في السودان - التيجاني عامر
دار الفكر - الدار السودانية
- ٦٤ - ديوان العباسي
مطبعة الكيلاني الصغير - مصر - للشاعر محمد سعيد العباسي
١٩٤٨

اللغة الانجليزية :

- Islam in the Sudan — J. S. Trimingham Frank Cass & Co. Ltd., 1965.
- The Influence of Islam Upon Africa, J. S. Trimingham (Longman) — 1968.
- A History of Islam :
In West Africa — J. S. Trimingham (Oxford Paperbacks).
Oxford University Press 1970.
- The Arabs in History : Arrow Books — — Prof Bernard
Lewis Anchor Press 1954.
- Modern Egypt — Earl of Cromer Vol. II.
McMillan and Co. Ltd., 1908.
- A History of The Arabs. H.A. MacMichael in The Sudan,
Vol. I and II.
Frank Cass and Co Ltd.
- A Biographical Dictionary — of The Sudan, Richard Hill.
F. Cass and Co. Ltd — 1967.
- Travels in Nubia - John Lewis Burckhardt London - 1819.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
العرب ووادى النيل	٥
السودان وبداية انتشار الاسلام	١٤
نواة التعليم الدينى المنتظم	١٩
الرواد السودانيون من متخرجى الأزهر	٢٦
العلماء المصريون الأزهريون فى السودان	٣٢
مؤلفات العلماء السودانين	٣٤
الأزهر والقضاء والفتاوى فى سلطنة سنار	٤١
سلطنة دارفور والأزهر	٤٤
الحكم التركى فى السودان	
(١٨٢١ - ١٨٨٥ م)	٤٩
اغتتيال اسماعيل باشا	٥١
الطلاب السودانيون يقبلون على الأزهر	٥٥
متخرجو الأزهر السودانيون فى العهد التركى	
[١٨٢١ - ١٨٨٥ م]	٥٨
مدرسة الخرطوم الابتدائية	٦٣
احتفال مدرسة الخرطوم فى الوقائع المصرية	٧٠
القضاء فى العهد التركى	٧٢
علماء سودانيون نوابغ درسوا على متخرجى الأزهر	٧٥
متخرجى الأزهر فى الثورة المهديّة [١٨٨٥ - ١٨٩٨]	٨٢
فقهاء متصوفون	٨٩
المرأة السودانية والتعليم الدينى قديما	٩٦

الموضوع	الصفحة
الشعب السودانى	٩٩
دور الأزهر ابان الحكم البريطانى [١٨٨٩ - ١٩٥٥ م]	١٠٣
الأساتذة المصريون والنشاط الاجتماعى	١١٦
التعليم الدينى	١٢٣
المعهد العلمى بالسودان	١٢٧
جامعة أم درمان الاسلامية	١٣٢
يد الأزهر البيضاء تمتد الى نيجيريا عبر السودان	١٣٤
احصائية عديدة عن الطلاب السودانيين فى الأزهر	١٣٧
شعراء السودان يلهجون بذكر أساتذتهم المصريين	١٤٤
هؤلاء قالوا عن أثر الأزهر على السودان	١٥٣
خاتمة	١٥٨
الملاحق	١٦٣
المراجع العربية	١٦٥
المراجع الأجنبية	١٧١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٨٨٠٣

ISBN ٢ - ٥١١ - ٠١ - ٩٧٧ -

هذا الكتاب الأول من نوعه يصدر عن دور الأزهر الشريف في قطر
شقيق - السودان الأمر الذي ظل خافياً على كثير من المواطنين في وادي
النيل والبلاد العربية .

والكتاب تسجيل مبدئى لما قام به العلماء الأزهريون - سودانيون
ومصريون - في نشر الثقافة الإسلامية في السودان .

ولعل مما يلفت النظر الإشادة الطيبة والثناء المستطاب الذي ظل
الأدباء والشعراء السودانيون يؤكده له نحو أساتذتهم الأزهرين اعترافاً منهم
بجميل صنعهم منذ الزمن الغابر وإلى يومنا هذا .

To: www.al-mostafa.com